عبده خال

الأوغاد يضحكون

قصص قصيرة




الأوغاد يضحكون

عبده خال

الأوغاد يضحكون

قصص قصيرة

جوى:

تأتين كأغنية في حنجرة شيخ يتغرغر بها ليتذكر حلاوة الحياة.

أبوك لا يكترث بالأوغاد ..فتعالي نتجاور ونقتطف غيومنا ونضحك سوياً على فتات الناس ..نضحك على هؤلاء الذين يعكرون الحياة.

عبده

المحتويات

الأوغاد يضحكون

قصص نيئة


منتديات الكوكب العاشر

الأوغاد يضحكون

١

البلـوزة

تعبره كل يوم فتعمق في شغاف قلبه أخدوداً من الوله، يتبع ممشاها فتسيل رغبته ويزداد توتره. تصليه حمم جسده ويفور ..يفور ..يفور بعجلة يبلله طوفان الرغبة، يغرقه في ماء آسن ويذوي قبل أن تغادر عينيه، يذوي ككلب ركض وركض فلم يكن نصيبه إلا نصف ظل ولهاثاً مديداً.

اليوم وقفت على باب مغسلته.

ربما قال كلاماً جماً. ربما تدلت من لسانه قطعة السكر فلعق شفتيه، لعق ريقه الدبق وماء خياله المنسكب. ربما فكر أن يقول كلاماً طازجاً. ربما سرق شيئاً من مفاتنها الحائرة ليغذي به خياله حين تتيبس الطريق. وربما انكسر أمام فتنتها الطاغية فلم يقدر أن يقول

شيئاً إذ هناك عميقاً في داخله تتلجلج الكلمات، وبقي يموج برغبة ظن أنها خرجت من مسام جلده ..يتذكر تماماً ارتباكه وحيرته وبعضاً من مفاصل كلمات تثير الضحك تفوه بها، عندئذ ربما غدا نادماً على خروجها.

من كل هذه اللحظات الخاطفة بقيت في ذاكرته نتف من لحظات التشتت التي اعترته. شيء وحيد بقي جلياً يعرك بهجته ويطفئ نشوته، يحدث هذا كلما تذكر هزيمة عينيه اللتين طالما عادتا حسيرتين بعد كل غزواته لاختراق سماكة الغطاء الذي يحجب حسن قوامها الريان، المتمايل في الهواء كأنه غارق في نغم لا يمل من الرقص.

يضرب جبهته بعنف كلما تذكر انشغاله بالكشف عن وجهها وتفريطه في التمتع بمشهد تدفق نهر صدرها المتعطش لري جبليها الشامخين.

كما ندم على تخاذل يديه اللتين لم تواصلا الزحف للمس أناملها حين مدت له بالبلوزة، ندم وقضم أصابع يده اليمنى التي امتدت متخاذلة لاستلام ذلك الكيس الناعم، وعندما لم يشف غليله منها قضمها مراراً وربطها في سارية المغسلة واستمر في عمله اليومي بيده اليسرى يجدف بحر الأمنيات القادمة بمزاجه المعكر.

≈

كالحلم البعيد الباهت يذكر خضرا وهي واقفة في الحقل تغطي رأسها بشرشف برتقالي صبغ بأصبعة رديئة كاشفاً عن لون حائل

بعد أن هتكت سره شمس حارقة فنكبت ألوانه وشحب وظل شاحباً يفور بروائح عطور محلية نافذة بينما تراقصت ابتساماتها الطرية المتشنتة، وزمت عينيها فظهرتا كعصفورتين حذرتين تزقزقان من عشيهما. كان ذلك منذ عهد بعيد، ربما سنتين أو عشر سنين لم يعد يذكر بالتحديد. فقد نسي الطرق المؤدية إلى هناك وقبع في هذه المغسلة يستقبل الوجوه الملاحة والملابس الرثة التي حافظت على روائحها ودرنها.

لا زال يشمئز من ملابس العمال فيرفعها بعود خشبي ويقذف بها في برميل ماء يغلي ويتركها إلى حين، وحين يسحبها يكون قفازه البلاستيكي فاصلاً بينهما.

يصف ملابس الرجال بأنها مقابر لنتن الأرض، ويتعجب:

– كيف يقبل هؤلاء الثيران على قطف رغباتهم وهم يحملون كل هذا العفن؟!!.

ويزداد حنقه حينما يقف أمام المغسلة وهي تدور وتدور، تعجن كل تلك الملابس فتختلط كل تلك الروائح لتشمر عن رائحة يشبهها برائحة منافحة التيوس المخصية. أحياناً يحترز فيضع مشبكاً على فتحتي أنفه كسد يقيه انبعاث تلك الروائح، لكن هذا الاحتراز لا يقيه انبعاثها، إذ تنشط تلك الروائح مع تقليبها مخترقة قحف جمجمته عنوة، فيترك مهمة إكمال الغسيل لمعاونه وينزوي جانباً، ويريق على جسده ماء ممزوجاً بماء الورد، وكلما دنت خضرا من خاطره هرب منها متذكراً أنه سيأتيها حاملاً كل هذا النتن.!!

≈

تعبره بمشيتها المتثنية وجسدها البض بلا اكتراث فيهجس:
ــ يااااالاااه

وعندما مضت الأيام من غير أن تثمر تعليقاته الخاطفة استعاض عن ذلك دندنة كل الأغاني المهيجة في مثل هذه المواقف، تلك الأغاني التي تمجد الجمال وتسترق السامع للوعة مهملة.. وكلما ابتكر وسيلة توصل صوته إليها نأت كمن لا يسمع.

مع الساعة الواحدة والنصف تكون قد أنهت دوامها المدرسي، يقذف بكل ما في يده ويظل منتظراً عودتها. تقف السيارة أمام المغسلة تماماً، في هذه اللحظة (بالذات) تكون عيناه منفتحتين على اتساعهما فحين تدفع الباب تظهر ساقاها نافرتين من تلك الغلالة السوداء فتبين قدمان ممتلئتان مستديرتان تنتهيان بحذاء يتغير كل يومين أو ثلاثة، ثم يستقيم عودها طاعناً الفضاء بقامة فارعة رطبة، تلملم عباءتها على صدرها مخفية ثمرتين نادرتين في استوائهما. أصابع يديها ناعمة مرتوية كالأقلام الفاخرة تنتهي بأظافر مديبة منسابة أبقت على مداد قاني الاحمرار. تعبر الرصيف تاركة جسدها يراقص الهواء والأمكنة بينما تتوقف رائحتها لتحرس مشيتها وتثبت الأمكنة في مواضعها كي لا تتساقط حجارتها كمداً على اختفائها، في كل هذا الارتباك يزهر بمقدمها بيت واحد إذ تدس فتنتها في بوابته الواسعة فيضمها ويعبس للدنيا بإغلاق ردفتيه.

تغلغل عطرها في مستودع حاسته الشمية وأصبح يميزه من بين العطور كلها لكنه عجز عن أن يعثر عليه. وقف أمام محلات العطور محلاً محلاً، فتح كثيراً من زجاجات العطور ودس بها أنفه وظلت إجابته لكل بائع:

- ليس هذا العطر الذي أبحث عنه.

احتقره الباعة وتنازلوا عن هذا الشعور متوددين حينما أبدى استعداده لشراء زجاجة العطر المعنية بأي ثمن، كان، وقبل استعراض زجاجات العطور يترك ألف ريال في يد عامل المحل ليتأكد من رغبته في الشراء، يقف أمام العطور المرصوصة ويشد قامته رافعاً رأسه ومغمضاً عينيه، يهيم بعض الوقت حتى تتراخى عضلاته تماماً ويسقط رأسه على صدره كمن دهمه نعاس ثقيل. يظل هكذا ويبدأ بملامسة زجاجات العطر، يستبعد الزجاجات ذات التنويعات الملتوية قائلاً:

- الجمال انسجام وانسياب، فالطرق الوعرة مهما كانت جميلة فهي في النهاية وعرة.

برفق وليونة يمسك تلك الزجاجات، واحدة واحدة يستنشقها بعمق، يترك لرئتيه فرصة أن تتشبعا بتلك الرائحة، وينفث زفيراً هادئاً متقطعاً رتيباً، تطفح حسرته من خلال مسام وجهه ويعاود طفر ابتسامته ملامساً زجاجة عطر مؤملاً أنها هي. ابتلّ أنفه بين زجاجات العطر النسائي من دون أن يمسك تلك الرائحة لكنه لم ييأس.

في العزبة(*) أحس رفاقه بأنه يخفي شيئاً ما عنهم، اقتربوا بأحاديثهم منه فنفر منهم وخبأ رغبته في داخله. وحينما أوشكوا أن يصلوا إلى هاجسه حمل عفشه البسيط وسكن وحيداً في بيت شعبي

(*) العزبة: سكن ذكوري يخص أولئك المغتربين الذين هجروا بلدانهم وارتضوا بالغربة فتجمعوا جماعات في سكن واحد... وبعد انتقال أهل البلد في القرى إلى المدن للدراسة أو العمل أصبحت العزبة غير مقتصرة على المغتربين بل تشمل هذه الفئة أيضاً.

تصدعت جدرانه وتقرفص تحت أعمدته البالية كعجوز اتكأت على عصا لينة.

مع الغبش تكون مغسلته مشرعة أبوابها، وعندما تخطر وتدس جسدها في السيارة يغلق محله مسرعاً ويعود إلى غرفته الكئيبة يستحضرها أغنية لايمل من ترديد مقاطعها.

اليوم وقفت على باب مغسلته.

نزلت من السيارة وفي يدها كيس (بلاستيكي) فاخر، كانت عيناه ترصدانها، لم تسر بصورة عمودية صوب بوابة العمارة، كانت مشيتها المتمايلة تتجه صوبه، تسارع وجيب قلبه، أحس بالعرق يتفصد من جبينه مخرجاً كل العطور التي استنشقها لتحل هي هناك. مع اقترابها بدت أكثر فتنة:

- لو سمحت أريدك أن تغسل هذه الملابس..
- .....
- أرجو أن تحرص عليها فهي غالية.
- أبشري ..من عيوني.
- ....!!
- هل تريدين غسلها بالبخار؟
- لا أعرف، الذي أريده منك أن تحرص عليها.
- سأكون أكثر من حريص.
- شكراً.

انعطفت مستعجلة وتركت بين يديه شيئاً منها ومضت بينما ظل عرقها يحرس الأمكنة من أن تتساقط على بعضها.!!

قفز داخل مغسلته.. واحتضن جسده بكلتا يديه، لم يكن يعرف ماذا يصنع فقد تواصل حبوره حتى أنه خرج من مكانه وهرول أمام المغسلة رافعاً طاقيته وملوحاً بها بصورة دائرية في رقصة متوترة تخيلت ضرب الدفوف وبائعة الأغاني الجبلية.

أقسم أنه لم يسمع كلمة شكر بهذه الرقة والنعومة والعمق والدلال، بل لم يسمع كلاماً عادياً يتموسق فيرتقي درجات الغناء .. هل راوده هذا الحلم في السابق: أن تأتيه هي نفسها وتتركه يتنزه في بشرتها الفضية وتخاتله رؤية قرط تهاوى في وادٍ سحيق ووميض للأسنان عبثت بشفة تهدلت كثمرة رمان تشققت فاضحة نضوج حبيباتها.

تقف على أهداب عينيه وتعثر سنوات عجافاً من ملوحة الغربة وجفاف البال من طيف أنثى تحرق الأيام البالية الحامضة.

قبض على الكيس (البلاستيكي) منتشياً، وكشف عن ملابس ملساء ناعمة تفوح بذلك العطر الذي أرهقه البحث عنه، دلف إلى داخل المغسلة ونثر محتويات الكيس، غرس أنفه بين تينك القطعتين:

تنورة كريب أسود ضيقة لم تكن مبطنة، ذات فتحة في أحد الجانبين تصل إلى الورك، مغلقة بثلاث أو أربع أزارير مكبوسة بلون أحمر، وثمة رسم يدوي باللون الأبيض على الجانب الموازي للفتحة، وهناك رسم بارز يبدي تشكيلاً عشوائياً يوصل المدقق فيه لهيئة امرأة انكفأت على نفسها، تضم وردة متفتحة بينما كانت البلوزة من «الشيفون» المشجر بألوان ممزوجة بالأبيض والأسود والأحمر لها فتحة صدر واسعة بياقة عريضة بلا كم تزينها شرائط

تدلت من الجنبين، كل شريط جمع الألوان الثلاثة في حزمة واحدة. بينما ظهر ذلك الرسم البارز المشغول أسفل الكتف اليسرى مفترشاً كل الألوان.

غمس وجهه وسط البلوزة واستنشق عبيرها بنهم، وفردها بين يديه، تخيل نهديها وكلما رفع البلوزة من جهة الصدر هبطت ..تخيل نهديها يستديران وتنفر حلمتاها في رعشة شبقه، هجس بداخله:
ـ هما كتفاحتين ناضجتين ..لا ..ربما هما أكبر قليلاً..

أغلق مغسلته، وخبأ الكيس البلاستيكي تحت إبطه، عرج صوب السوق، وقف عند إحدى البسطات وطلب من البائع أفخر أنواع حمالات الصدر.

أي مقاس تريد؟

ارتبك وأحس بالحرج يعتريه، حاول بيديه أن يقيس حجم ذينك النهدين:
ـ هكذا!
ـ ألا تعرف المقاس..؟

هز رأسه موافقاً، فتابع البائع حديثه بصلف:
ـ أهي زوجتك؟

شعر بالمهانة وتمنى لو يقبض بحلق هذا البائع غير المهذب، استقر رأيه على (ستيان) متوسط الحجم:
ـ كهذا

تناول حمالة الصدر مستعجلاً العودة، أغلق باب غرفته وفرش التنورة وركب عليها البلوزة، بعد أن حشرها بحمالة الصدر فتكون نهدان مهيضان لم يروقا له، فبث مخدته وأخرج منها قصاصات أقمشة متنوعة عبأ بها (السنتيان) وألبسها البلوزة، تكور السنتيان مظهراً ثدياً منتصباً بينما ظل الثدي الذي يجاوره مهيضاً يدعو إلى الضحك، أخذ ينقص أقمشته حتى تساوى واستدار مع الثدي الآخر. لم يأنس لهذين الثديين فقد هبطت ربوتاهما وتكرمشتا من جهة الحلمتين، وكلما جس أحدهما هبطت ربوته من غير أن تهتز وتربو، أو ترتعشا كعصفورين ذبحا بنصل مثلوم. شعر بالضيق ..تذكر «المانيكان» ـ تلك الدمى التي يعرض عليها الباعة أفخر الفساتين ـ ركض إلى السوق وعاد حاملاً إحداها ..ألبسها التنورة و«السنتيان» وخلع عليها البلوزة. أدهشه أن تفقد المرأة نصف جمالها حينما تكون صلعاء، فركض مرة أخرى لداخل السوق لاعناً سوء تقديره ليشتري شعراً ليلياً مستعاراً لتلك الدمية ويعود لاهثاً يصلح جمالاً تربع في مخيلته وفسد بين يديه.

عندما انتهى من إلباس المانيكان، كانت تلك الفاتنة تقف أمامه تماماً ..تفور رغبته وسعار من جحيم الخيالات يغذي مخيلته، فيتلظى وتجري بحور مياهه ساخنة متدفقة.

كانت تهمس في أذنه:

ـ لو سمحت أريدك أن تغسل هذه التنورة وهذه البلوزة.

بدّل تلك الجملة بما يشتهي أن يسمعه منها:

ـ لو سمحت أريدك أن تنزع هذه التنورة وهذه البلوزة.

مرّ عليه ليل لذيذ سمع فيه منها كلمات لم تقلها امرأة لرجل. وفي الصباح وقبل أن يغادر فتاته قبّلها في ثغرها ومضى إلى مغسلته جذلاً تمطر من فمه أغنيات هربت من ذاكرته منذ زمن بعيد.

عندما استقر في مكانه خطرت وهي تملأ الفضاء بتمايل قامتها التي لا تعرف الانحناء بينما كانت مفاتنها تغرد لصباح هنيء بزف خطواتها المتريثة. فزّ من جلسته ومد عنقه صوبها فعبرته متناسية ما فعلت به ليلة البارحة (ها هي تتحرك وتفور من مفاتنها سحر ليلة البارحة) ..هتف بداخله:

- كانت البارحة أقل طراوة من الآن.!!

≈

قفزت خضرا أمامه، فتاة بائسة امتص الجوع عودها، وجرى العطب بين راحتيها من مسكة المنجل، وجرف سيل الانتظار جبلي صدرها اللذين كانا ينهضان لمقدم من زرع في مخيلتها رغبة الوقوف عليهما والتغني على سهولهما بأغنيات الرعاة العائدين قبل مباغتة ليلة ماطرة، غدت فتاة مهدمة، تقول الرسائل القادمة من هناك:

- خضرا تقترب من الثلاثين وهي ما زالت تنتظرك ..حرام عليك لم تعد صالحة للزواج إلا بك.

سقطت كل ذاكرته حينما لوت عنقها باتجاهه ..ففقز من مكانه صائحاً:

- ياااالله

أجزم ـ فيما بعد ـ أنه لمح برق ابتسامتها يشق المدى.. وبعدها هطل ماء قلبه في كل الاتجاهات.

≈

يعود ليلياً، يقف أمام تلك الفاتنة التي صنعها، يقبلها، ويحرك ليله الراكد بها ..كان قد هيأ غرفته (بلمبات) ملونة واهنة الضوء، يحمل تلك الدمية ويجلسها أمامه مباشرة ويبحر معها في لواعج الهوى ..في آخر مرة أحس بصمتها فحوط عنقها ولثم خدها:

ـ لم لا تتكلمين يا حبيبتي؟!

غزت باله فكرة استوطنت تضاريس مخيلته فأخذ يخطط لها كي تفرش نفوذها وتخلصه من خرس فاتنته وقبل أن يغمض عينيه كانت خطته قد اكتملت وأضمر تنفيذها.

≈

هيأ نفسه تماماً، فقد وضع المسجلة فوق طاولة استقبال خدمات الزبائن ووصلها بالكهرباء واضعاً فيها شريطاً جديداً بعد أن تأكد من حساسية التقاطها لأي صوت يجول في محيطه ..وانتظر مجيئها.. يوم، يومان، وفي اليوم الثالث وقفت أمامه، رائحتها تصيبه بالخدر، فاختلطت أوهامه مع واقعه وكلما أوشك أن يحدث ذلك الخلط يضرب خده بيده فيلمح بروق ابتسامتها تتسع:

ـ هل انتهيت من غسل الملابس؟

ـ ستكون جاهزة بعد أيام قلائل.

ـ لا، أرجوك فأنا أريدها عاجلاً فلدي مناسبة.

- أنا حريص على غسلها وكيّها دون أن يحدث بها أي عطب ..ألا توجد لديك ملابس أخرى تودين غسلها؟
- لا.. سأعود غداً لآخذها

≈

جلس مع تلك الدمية يصفف شعرها وأدار صوت المسجلة وأخذ يسمعها، تمخضت مخيلته عن فكرة مضنية: أحضر جهاز تسجيل آخر وأخذ (يمنتج) من جملها جملة ترضيه وتطيب مزاجه! وبعد ساعات من المنتجة ظفر بهذه الجملة:

- هل انتهيت؟ لدي مناسبة، سأعود غداً. أرجوك سأعود غداً.

كان المسجل يدور بتلك الجملة في مسامعه مراراً وهو في غياهب النشوة يستغيث بها ويغرق في لذته مجاهداً في إغرائها للبقاء إلى جواره بتوسل منكسر:

- إبقي فأنا لا أقدر على فراقك لحظة واحدة.

بينما صوتها يصله متقاعساً خدراً:

- هل انتهيت؟ ..لدي مناسبة، سأعود غداً. أرجوك سأعود غداً.

≈

مع ذهابها وإيابها تسأله:

- هل انتهيت؟

فيسوّف مواعيده السابقة.

وكلما جاءت سائلة، كسبَ وقوداً يغذي مخيلته لليلته القادمة.

≈

خطت خطوتها فتساقط بداخله غيث الأمنيات، ثم وقفت أمامه كرمح ثقب الفضاء. فجأةً، تخلى صوتها عن بعض رقته في حضرة قامة قدت من صخر لرجل تصحر فيه كل شيء واهتز في تصحره شارب كث وصوت له صرير ثاقب:

- هل انتهيت من غسل الملابس؟
- ....
- ألا تسمع؟
- ليس بعد.

جاء صوتها مرتوياً بالتذمر:

- شهر كامل ولم تنته.. والله لو طلبت أن تخيطها من جديد لانتهت ..أظن أنك بعتها أو أضعتها.

صاح منكسراً:

- تقولين بعتها ..حرام عليك ..بعتها ..أنت لا تعرفين
- ....
- إذاً أضعتها؟

ضرب الرجل المصاحب لها الطاولة بعنف:

- الآن تحضرها ..أفهمت؟

خرج من مغسلته مهزوماً، وانعطف في شارع ضيق. كان يشعر بهما يتبعانه. لم يلتفت إليهما وأدار مفتاح الباب ودخل غرفته ..شاهدها تقف شامخة ساحرة وعطرها يتموج من إبطيها بتكاسل، احتضنها، لثم ثغرها بينما كان صوتها يأتيه متمنعاً:

- هل انتهيت؟ ..لدي مناسبة، سأعود غداً.. أرجوك سأعود غداً.

طرق عنيف على باب بيته يكاد يصم الآذان، تشاغلت يده بتعرية الدمية، كوم البلوزة والتنورة في صدره، تهاوى فجأة، شعر بالذوبان ونار حامية تصهره، فأخذ يجهش بالبكاء فيما كان طرق الباب يتعالى بضجيج.

٢

الرائحة قادمة

قصة قصيرة(١)
مشهد لا يمكن أن يعود شخص لسرده.

على ضوء القمر المسترسل بفجاجة، تبزغ قامات من على جدر منخفضة وتهبط كحجار ثقيلة ـ داخل السور ـ وتشب من مكان هبوطها عجلة ربما تنفض أرديتها البيضاء وربما لا تحرص على ذلك، تتشعب خطواتها في سباق محموم، وتندس هناك بسرعة فائقة وكأنها تلعب لعبة الاختباء، ليعود الصمت فتياً متأهباً لاستقبال قادمين آخرين يعكرون سكونه بطرق نعالهم ودمدمتهم الموحشة غير متهيبين من جلال المكان.

...............................(٢)

ـ هل جاءت المدينة بأجمعها؟

ربما كان هذا الخاطر محفزاً لي لأن أسابق تلك القامات عجلتها وأحجز مكاناً قبل أن أجد نفسي مقذوفاً في العراء.
ـ لم أكن أتوقع أن أجد الجميع هنا.

بعد أن خرجوا من شقتي يرتجفون تذكرت تصبب العرق من وجهه ويديه المتعرشتين فقفزت من جلستي مرعوباً ..الآن فهمت فحوى كلامه وسر ذلك الرداء الأبيض الذي كان يتمنطق به، هببت من جلستي فزعاً حين سقطت فكرة غامضة ضارية في قاع جمجمتي وعكرت دوائر البال ..لدغني هاجس ضياع الفرصة الأخيرة وقبل أن تنضج الفكرة التي حلت برأسي كنت قد عبرت منحنيات الحارة كوميض جرح الأفق بلحظته وغاب ..غاب مطمئناً لأنه وجد أفقاً يلحده كما يليق ببرق خاطف.

≈

ضجيج وطرق باب لا يمل.

كان الليل مستبشراً ببدره الذي اكتمل وتدلى كقنديل متوهج خفف وطأة العتمة الرابضة بين الأزقة ومحا وحشة المنحنيات الضيقة..كان بالإمكان أن يكون ليلاً مثالياً للسهر والخروج لجذب قوارب الذكريات القديمة أو تبادل همسات عشاق أضناهم البعد..
كان بالإمكان أن يكون مثالياً لأي شيء يمارس في حي ضمر ولم يعد مرتوياً بأهازيج السمار والدوران حول نار مستعرة في لعبة المزمار المهيجة للنزال والمقارعة ..كان بالإمكان أن يكون ليلاً مثالياً

لولا تلك الرائحة النتنة التي علقت في الهواء وتوزعت في كل جنبات الحارة لتدفع بالناس خارج بيوتهم بحثاً عن نسمة هواء يجددون بها حياتهم التي يشعرون أنها تتملص وتغور.

رائحة نتنة.. (نتنة ليس وصفاً دقيقاً لتلك الرائحة).

فلم تكن رائحة خمرية لتكدس النفايات أو جريان المياه الآسنة أو سهك العمال المتجمع في ثنايا أبدانهم بعد يوم من عمل مضن وشاق أو صنّة أولئك الذين لا يعرفون نتف شعر الإبط فبقي صننهم يفوح من تحت أرديتهم الثقيلة، ولم تكن رائحة لسمك دهك تحت أشعة شمس حارقة أو شياط قطن احترق أو زناخة الدهون المنسابة على أرضية الحي من صاجات الباعة، ولم تكن رائحة مروحة للحم فاسد أو مذر بيض فقص قبل الأوان أو حامضة كخبز تخمر فأعطن ..رائحة جمعت كل تلك الروائح وساحت في الأمكنة ولم تمكن أحداً من استنشاق الهواء بيسر فغدت هاجساً يحرك كل الألسن بسؤال يرف كجناح عصفور:

ـ من أين تأتي هذه الرائحة؟

≈

لم يعد أحد قادراً على التنفس.

خرجت الحارة عن بكرة أبيها للبحث عن مصدر تلك الرائحة التي حوّلت حيهم إلى فضاء خانق، ولم يخرجوا إلا بعد يأس قانط من أن يجدوا حلاً لدى الجهات الحكومية التي انقلبت على أعقابها بعد محاولات يائسة لاكتشاف مصدر تلك الرائحة.

ففي البدء اتُّهمت البلدية لسوء خدماتها وتقاعس عمالها عن حمل حاويات النفايات وقذف محتوياتها بعيداً عن الأحياء المزدحمة بالناس، وقد تعددت الشكوى وتبرع أحد رجالات الحارة المرموقين بإيصال شكوى تلك الرائحة إلى مدير فرع البلدية المسؤول عن هذا الحي ولم يبادر للاستجابة إلا حينما نشر خبر صغير في جريدة «الحوار» المرموقة تحت عنوان (رائحة غريبة تسرق الهواء).

في اليوم التالي ربضت عشرون عربة من عربات البلدية وحملت جميع القمائم ونثرتها على أطراف المدينة، إلا أن الرائحة ظلت رابضة في مكانها فقامت البلدية باستبدال الحاويات القديمة بحاويات جديدة ..وعندما تفاقم الأمر وتنافرت الشكوى لجهات متعددة تحركت الصحف لمتابعة تلك الرائحة فنشرت جريدة «الشراع» استطلاعاً مطولاً وقد ظهر أهل الحي مكممي الأفواه وهم ملقون على جوانب الطرقات كمن أصيب بوباء فتاك، ورافق إحدى الصور هذا التعليق: (أحد مواطني الحي وهو يستجدي الهواء). واستضافت الصحيفة في ذلك الاستطلاع مسؤول البلدية الذي نفى أن يكون هناك تقصير من قبل جهته وحاول أن يزحزح التهم في اتجاهات أخرى، فتوجهت إشارة الاتهام إلى مصلحة الصرف الصحي إلا أن هذا المرفق تنصل من التهمة بوجود مصاريف يستحيل معها بقاء أي سوائل، وليؤكد نزاهة مرفقه أنزل عشرات من عمال الصرف الصحي ليصرفوا المياه الراكدة، ولكي تنتقل إشارة الإتهام في جهة أخرى بعيدة عن مرفقه تعلل بغياب مركز صحي بالحي مما نتج عنه تفشي هذه الرائحة، مؤكداً براءة مرفقه من إحداثها. فتحركت وزارة الصحة وأرسلت أطباءها وضخت الأوكسجين مجاناً ليومين متتاليين، وعندما لم تفلح في إحداث تغير انقلب أطباؤها وعادوا من حيث أتوا.. وصرحت مصلحة الأرصاد

وحماية البيئة أن هناك أثراً للرائحة لا يعرف مصدرها بالتحديد نافية وجود تلوث من أي نوع تسبب في إحداث تغيير الرائحة، وإزاء هذه المشكلة التي تنصّل منها الجميع، شكلت المحافظة لجنة لاستقصاء أسباب انبعاث تلك الرائحة الغريبة وجاء في تقرير اللجنة ما يلي:

بسبب تجاور البيوت وعدم نظافة أهلها وانسياب كثير من السوائل مجتمعة ظهرت هذه الرائحة. والاقتراح بث الوعي وإلزام أهل الحي باتباع النظافة في كل معاشاتهم ونوصي بإلصاق لوحات إرشادية لإزالة مثل هذه الروائح مستقبلاً ....(٣).

وبهذا التقرير نسيت الجهات المسؤولة ذلك الحي ورائحته وبقي الناس يقرأون اللوحات الإرشادية التي ألصقت في جميع أنحاء الحارة ويجاهدون لاستنشاق الهواء.

وعندما تركت الحارة لتدبر حل مشكلتها ظلوا لأيام يتبادلون الرأي وصدّق معظمهم على مقولة أحد رجالات الحارة:

ـ هذه الرائحة رائحة شخص مات.

هذه المقولة تناقلتها الأعين مما جعل سيارات الشرطة تعشش في أوصال الحي كطيور عادت لأوكارها فجأة، وبعد تفتيش دقيق كذبوا تلك المقولة وتركوا أمراً صريحاً معلقاً في آذان أهل الحي:

ـ ما تقومون به يدخل ضمن إزعاج السلطات ومن يكرر الفعلة فسيجد عقاباً صارماً.

لم يكترثوا كثيراً لهذا التحذير وجلس الكبار منهم لإحصاء المتغيبين

عن الحارة.. وعندما لم يجدوا شخصاً غائباً قال قائل[٤] منهم:
– ربما يكون الميت غريباً أو حيواناً انحشر في مكان لا نعلمه. وتواصوا بالخروج للبحث عن مصدر تلك الرائحة.

الليلة خرجوا جميعاً للبحث.

≈

أعيش في هذا الحي منذ زمن طويل..

حي ينعم بكل شيء إلا الفرحة. لم أر أحداً يبتسم أو يتبادل التحية، الكل يدس عيونه في الأرض ولا يرفعها إلا لماماً، ترتفع الأيدي في تلويحة مبتورة وتعود إلى مكانها بسرعة متناهية، ارتفاعها يشي أنها تحية وفي حقيقة الأمر هي ساتر لحجب العين من الابتعاد عن الطريق المرسوم لها. أقطن هذا البيت منذ عشرين عاماً، تزيد قليلاً، لم يبادلني فيها أحد الزيارة ولم أجالس أحد لمعرفة أخباره، وخلال هذه السنوات نبتت في داخلي العزلة ولم أعد حريصاً على معرفة ما يدور في الجوار وأيقنت أننا نعيش كالخلية الواحدة غير قابلة للانقسام أو كقبور متجاورة كل شخص في قبره.

حياة مملة وباردة. يمضي يومك وأنت منشغل بلوازم حياتية جامدة وإذا أزهر أمل طارئ في حياتك فهو فرحة بأن يتحقق في الأيام القادمة، وبهذا تم ترحيل كل الأفراح للأيام القادمة التي لا تأتي..
أخرج يومياً من الصباح الباكر للعمل وأعود مع المساء كشمس

مرهقة عليها أن تنجز دورتها اليومية مهما حدث، وتؤوب مع المساء لتختبئ خلف الليل في إغفاءة قصيرة وتعاود حركتها في صيرورة لا تنتهي.

مضى شهر كامل ولم أوف بالوعد الذي قطعته على نفسي، فحين كانت تحشرج آخر أنفاسها أصابني الهلع ليس لموتها ولكن لشعور مباغت بأنني سأبقى في هذه الحياة وحيداً كآنية أفرغت من مائها وبقيت هكذا تستقبل الغبار والهواء العابر.

وأصبح من عاداتي أن أقف على قبرها بعد صلاة الجمعة، ففي ذلك اليوم الوحيد الذي أجد نفسي متحللاً من أعباء العمل أنهض في الساعة الثامنة والنصف وأظل منشغلاً بتنظيف البيت وإزالة الأقذار المتراكمة هنا وهناك، ثم أدخل الحمام وأريق الماء على جسدي لساعة أو ساعتين من دون أن أعمل شيئاً سوى استقبال تلك المياه والعبث بمحتويات الحمام أو برغوة الصابون التي تتكوم على فوهة مخرج البانيو. وقبل أن يؤذن المؤذن أكون جالساً في مقدمة الصفوف قارئاً للقرآن، وبين الحين والآخر أترك عيني تتربصان بجموع المصلين في ركوعهم وسجودهم أو تتابعان تعبيرات ملامحهم المتجهمة ..وأكون من أوائل الذين يخرجون حيث أسير مباشرة إلى مطعم (صباح الخير) وأتناول وجبة الغداء بنهم مبالغ فيه، حيث لمواظبتي على الغداء هنا نشأت علاقة ألفة مع صاحب المطعم الذي كان يجذب كرسياً إلى جواره ويدعوني لمشاركته في شرب كأس شاي أظل أرشفه بينما ينشغل هو بمحاسبة الزبائن. كان جلوساً غبياً أمارسه كل يوم جمعة.. فلا حديث يكتمل بيننا، إذ مع أول زبون يكون مستعداً للمحاسبة يذهب حديثنا مفككاً سمجاً، لكننا ألفنا ذلك وتعوّدناه. وهكذا أودعه قبل أذان العصر بقليل وأتحرك صوب

المقبرة مؤدياً الصلاة هناك وبعدها أقف أمام قبرها أتلو بعض السور القصار وأسرد على مسامعها همساً كل ما حدث خلال الأسبوع المنصرم، أخبرها بكل التفاصيل وأمضي وقد تحللت من الكلمات التي تحجرت في فمي خلال بقائي وحيداً.

وقفت مذهولاً أمام قبرها،كان قبراً فارغاً وقد كشف غطاؤه، بعد تراجع متكرر تطلعت في داخل القبر وهالني منظر ذلك النمل المحمرّ والذي يتحرك بسرعة ويتريث قليلاً.. يقضم شيئاً ما ويعود لحركته النشطة ..كان القبار يقف بعيداً عني. تحركت صوبه صائحاً:

- أين صاحبة القبر؟
- لقد جمعت عظامها وستدفن في مكان آخر.
- كيف هذا؟
- هذا ما يحدث فقي ....(٥)

وبالتفاتة مدققة رأيت كل القبور مكشوفة ومهيأة لاستقبال نزلاء جدد، وقد اختفت تلك الحشائش الخضراء المرفرفة على بعض القبور. كانت آثار نتف عشوائي لتلك الحشائش بادية حيث بقي بعضها متمسكاً بجذوره ومبدياً مقاومة لليباس الزاحف لقرض اخضرار أصفر بالأطراف، وعلى امتداد البصر وفي خطوط متوازية فتحت فجوات غائرة في الأرض ..شعرت برعشة تعتري جسدي:

- هل فتحتم كل القبور؟

العرق المتصبب من جبهته والرداء الأبيض المتشح به يشيان بانشغاله، أكان لا بد أن أتبعه لأعرف السبب؟ كنت أسير خلف مشاء العجل وأقذف الأسئلة المتلاحقة فلا يلتفت أو يجيب. أيقنت الآن أن الأمر لم يعد مجدياً فقد توجه صوب أحد القبور مستعجلاً

وسقط داخله! كنت ألمح يديه ترتفعان وتقتربان من ضلفتي القبر بتعرش. لم أفهم جملته المواربة:

ـ أيام قلائل وستجد قبر زوجتك مغلقاً، لا لا بل كل القبور ستغلق. لن تجد قبراً مفتوحاً.

هزّت به في داخلي، وعدت لقبر زوجتي، مددت رأسي فلمحت النمل قد صعد جنبات القبر بمثابرة عنيدة، نمل لا حصر له أحسست به يقترب من قدمي اللتين تجاوران فتحة القبر وينهش إصبعي التي بانت من مقدمة الحذاء. فزعت وخرجت على عجل بينما كانت يدا القبار لا تزالان تتعرشان «بضلفتي» القبر في محاولة مستميتة لإغلاقه !!..

بعدها لم يعد لي مكان أذهب إليه، ففي يوم الإجازة أظل أحوم داخل الحارة وفي أحيان أجلس قرب النافذة أتطلع لشارع مقفر من المارة سوى سيارات عابرة أو شجرات عاقر ترف ورقاتها بتقاعس في استجابة لتدفق هواء رطب وتبدو في تمايلها كعجوز خريفية جلست تفاخر بفتنة قديمة عبرت محياها، وقد أقلعت عن الوقوف هناك حينما لامني الجيران:

- أنت تقف لتكشف عورة البيوت المجاورة؟
- أنا لا أرى أحداً.
- لكنهم يرونك وأنت تقف لكشف عوراتهم.
- والله لا أرى أحداً منهم.
- المهم ..عليك ألاّ تقف هنا.

أقلعت عن فتح النوافذ، ولكي لا توسوس لي نفسي بإلقاء نظرة عابرة من إحداها قمت بإحضار عامل تلحيم ليصب لحاماً ثقيلاً

على ردفات النوافذ ويستر الزجاج بألواح حديدية. وعندما انتهى وجدت أن البيت غدا معتماً وأكثر أماناً، وأصبح من عاداتي مجالسة التلفاز لوقت طويل وفي أحيان أستيقظ وأغلقه أو أتركه حتى أعود.

منذ أيام لم أعد أطيق المكوث داخل البيت فقد انبعثت رائحة وخيمة ظلت تجوس في مكانها دون أن أتمكن من معرفة مصدرها. ظننت في البدء أن إغلاق منافذ البيت أدى لوجود مثل هذه الرائحة، ولولا خشية من تقوّل الجيران أنني أصر على هتك عوراتهم لعدت بالعامل لفتح كل النوافذ، إزاء هذه الخشية أقلعت عما نويت وأخذت أتشمم مصدر تلك الرائحة فلم أستطع تحديده بدقة، وعندما فتحت الباب انبعث تلك الرائحة فوارةً حتى كدت أطرق الباب على جاري متوسلاً إليه أن يرحمني بتنظيف داره حتى وإن لزم الأمر إحضار أحد العمال للقيام بهذه المهمة على حسابي الخاص إذ لم أعد أشك بتاتاً أن الرائحة الكريهة تنبعث من شقته:

ـ ماذا لو طرقت عليه الباب الآن؟..ماذا ستكون ردة فعله لو اتهمته بمثل هذا الاتهام؟ وماذا يحدث لو لم يكن داخل البيت؟ أوه ستغدو كارثة لو لم يكن بالداخل، فلربما اتهمني بالتربص بأهل بيته ..ساعتها لن تجدي شكواي من هذه الرائحة(١). الحل الأمثل أن أتدبر أمري.

قمت برش منظفات ذات روائح زكية على مدخل البيت وتجرأت ورششت بعضها على باب جاري على أمل أن تتغلب العملة الجيدة

على العملة الرديئة، وانتظرت ذهاب تلك الرائحة ثلاثة أيام، وعندما بقيت توجهت إلى الصيدلية وأحضرت كمامة ووضعتها على أنفي. ومع ذلك ظلت تلك الرائحة تجوب البيت بهمة!

هذا الحي قذر للغاية فمع مظاهر الرفاهية التي تبدو للعين إلا أن ثمة قذارة تنبعث من مكان خفي، ثمة شيء يفسد ويتحلل مطلقاً رائحة تذكرني برائحة القبور المنبوشة.

كنت أظن أنني الوحيد من يضع الكمامة على أنفه لكن هذا الظن خاب، ففي صلاة الجمعة رأيت المصلين يدخلون المسجد مكممي أفواههم وبعضهم حمل زجاجات العطر وصبها في زوايا المسجد.. ربما كنت أول من وضع كمامة على فمي واقتدوا بي من حيث لا أعلم..

حياة رتيبة ومملة، لا شيء يحدث، أيام ساكنة مستنسخة حيث ننزع أوراق التقويم علنا نجد خلفها شيئاً مزهراً. كل ورقة تنزع تنبهنا بالخسران ....(٢) آه لاشيء يحدث!!

جلست لانتظار الغد، فما زالت عقارب الساعة تقترب من التاسعة مساء، كان الوقت يسير بطيئاً متهالكاً، بينما التلفاز يشعرك برداءة الوقت.

ضجيج وطرق عنيف يتواصل على بوابة المنزل.
- من ذا الذي خرج من قبره في هذا الوقت ليأتي لزيارتي؟

قمت متباطئاً وأدرت عكرة الباب فاندفعت مجموعات غفيرة من

الناس واضعين كماماتهم على أنفوهم وبقيت عيونهم تجول في المكان:

- هيه ..ماذا حدث ..ماذا بكم؟
- ألا تشم هذا النتن المنبعث من شقتك؟
- شقتي!!
- نعم رائحة أشبه برائحة كلب ميت.
- ومن أين يأتي كلب لداخل الشقة؟
- دعنا نرى.

انطلق الجميع لتفتيش الشقة، وفي لمحة بصر قُلبت رأساً على عقب،كان رئيسهم يسير متشمماً أركان البيت ووقف أمامي مستغرباً وصاح:

- هذه الرائحة منبثقة من جسدك..

فغرس جميعهم أنوفهم في جسدي ككلاب تتأكد من حاسة سيدهم وتصايحوا:

- هو مصدر هذه الرائحة.

صاح الرئيس:

- أنت رجل ميت بلا شك!!

كنت على وشك قذف ما في جوفي حينما ألصقوا أنوفهم بجسدي وفارت الرائحة نفسها من أجسادهم، ولكي أتأكد تحاملت على نفسي وغرست أنفي في صدر كبيرهم وصحت به متقززاً:

- وأنت أيضاً رجل ميت فالرائحة نفسها تنبعث منك.

تشمم ساعده وجفل ..تشمم أنامله فجحظت عيناه

وأشعلت رعب البقية:
ـ وأنتم أيضاً!

وكالضباء انشغل كل منهم بشم جزء من جسده وتفرقوا صامتين.

≈

كان الليل مستبشراً باكتمال بدره، يسرف في صرف ضوئه فتبدو الأشياء واضحة ظاهرة.

جلس واجماً وأنفاسه تكاد تنقطع، وأخذ يبعد يديه عن أنفه، يبعد نفسه عن نفسه وتقف في مخيلته صورة القبار والعرق يتصبب من جبينه متلفعاً برداء أبيض وبيديه اللتين تتعرشان بضلفتي القبر وصوته الواثق:
ـ أيام قلائل وستجد قبر زوجتك مغلقاً. لا، لا بل كل القبور ستغلق، لن تجد قبراً مفتوحاً.

فز من جلسته كالملدوغ ونبش خزانة ملابسه ووجد رداءً أبيض ناصعاً تلفع به على عجل، وشق منحنيات الحارة بخطوات ثابتة مستقيمة وضوء القمر يعكس ظله على الجدران فيلمح أخيلة لا حصر لها تتشجر على ظله. لم يعد السير مجدياً، هرول.. وكلما لسعته سياط الخوف زادت سرعته.

كان سور المقبرة منخفضاً قفزه على عجل، وأهاله انعكاس ضوء

البدر على أشباح كثيرة تتلفع بأرديتها البيضاء تنبت للحظات على جدار المقبرة وتقفز للداخل وتسير حثيثة الخطى لتدس أجسادها في تلك القبور المفتوحة وتتعرش لبعض الوقت قبل أن تجذب «ضلفتي» القبر فينطبق بضوضاء يجفل لها سكون المقبرة، بصعوبة وصل إلى قبر زوجته فوجده مغلقاً، بينما كان القبر الذي يجاورها لا يزال شاغراً تلفت حوله وأرعبه عجلة أشباح تسابقه لمثله وبسرعة خاطفة جذب كرسياً منزوياً - كان مُلقىً هناك - وقذف به لداخل القبر ورمى بنفسه، وبحركات متشنجة صعد على الكرسي ومد يديه وأطبق «ضلفتي» القبر، فهبطت ظلمة فاقعة. نحى الكرسي جانباً والتحف بردائه الأبيض وفرد قامته وتمدد في رقدته باستسلام.

١٤يوليو ٢٠٠٠م

وجدت هذه الأوراق الصفراء - والتي ننشرها كما هي، علماً أنها وجدت مغلفة في كيس نايلون - وجدت في إحدى المقابر ومعها أدوات بدائية مكونة من قلم وكشاف صغير وملابس ممزقة تعود لمطلع القرن، وساعة وحذاء وكرسي بقيت من قوائمه قائمتاه الأماميتان. وما زال علماء الأنثروبولوجيا صامتين إزاء إثبات حقيقة ما تحمله تلك الأوراق ويدرسون سبب استخدام الكاتب لضميرين في كتابته لهذه الأوراق وإن رجح معظمهم أن تكون الأوراق المصاحبة للجثة مجرد قصة لكاتب، وينقض هذا الرأي بقية الجثث التي وجدت في المقبرة نفسها وهي ترتدي ملابسها كاملة - على ما يبدو - وتشارك الجثة الأساسية ارتداء ساعاتها وأحذيتها، وقد وجدت بعض عملات ورقية قديمة متآكلة تعود لزمن استخدام العملات النقدية في التعامل.

وحذر علماء المستقبليات من تنبؤ صاحب الأوراق بهبوب رائحة تجتث الأحياء من على وجه البسيطة في يوم من الأيام، دون أن يجدي التقدم الطبي المهول، مدللين على تلك النبوءة بالعنوان الذي عنون به صاحب الجثة أوراقه (الرائحة قادمة) ويشاركهم هذا التوجس مجموعة من المهتمين بدراسة أحوال الأقدمين وإن زادوا هؤلاء رأياً مفجعاً ينص:

من المرجح أن الموتى مر بهم موت جماعي فتفسخت أجسادهم وبقيت أرواحهم معلقة في أجساد أصابها العطب ولم يكتشفوا موتهم إلا حينما انبعثت روائحهم.

وزادوا:

هذه الرائحة تتكرر مع حدوث كارثة كونية لا يعلم بها أحد، تتسلل أبخرتها عبر الغلاف الجوي وتقضي على الأحياء، دون أن يشعروا فيبقى الرائحة دليلاً على تحلل أجسادهم.

ويرى علماء النفس أن مثل هذه الحالات يمكن أن تحدث بنسبة ضئيلة لا تصل ٢٪ (عبر تاريخ الإنسانية الطويل). تحدث للبشرية في حالة الإحباط الشديد حيث تشعر النفس بكآبة عميقة يصاحبها شعور بالتحلل الداخلي وتفقد بهجة الحياة مصحوبة بشعور طاغ بأن الروح قبلت ولابد من ترك الحياة بأي صورة كانت.

ويتم الآن تجهيز أحد الرواد للعودة إلى الزمن الذي

ذكره الكاتب لجمع بيانات تكشف أسباب تلك الرائحة وإن كانت هناك معارضة لإرسال شخص بديل، حيث يرى الأطباء أنه من الضروري استنساخ صاحب الجثة وإعادته لزمنه لاكتشاف الأسباب الحقيقية لهذه الرائحة. ويشجع الجمهور إتمام هذه الفكرة بنسبة ٨٨٪ بتحريف يكلف الشركة الوطنية لإدارة الثروة البشرية مليارات من الريالات حيث يرون ضرورة استنساخ جميع الجثث وإعادتها لزمنها مع نقل بصري مباشر لما يحدث لهم عند عودتهم لزمانهم.

وتخضع جثة صاحب الأوراق لتحليل الجذور الجينية لمعرفة سجله المرضي قبل المغامرة في إعادته لزمنه وإن كانت تواجههم معضلة لم يعلنوا عنها صراحة.

ويقول البروفيسور خالد عبدالله:

هذه الجثث هي تحدٍّ حقيقي لتطورنا الحضاري، فليس المهم كم نتكلف لاكتشاف أسباب تلك الرائحة بقدر ما نحققه من إنجاز علمي لإماطة اللثام عن كارثة جماعية لم تذكرها وسائل الإعلام في زمنها ولم تحاكم المتسببين في إحداثها. واكتشافنا لأسبابها يمنحنا فرصة قضائية لمحاكمة أولئك المتسببين وتطبيق العقوبة عليهم في حالة نجاح التجارب التي تجرى الآن لإعادة الموتى الافتراضية.

وإلى الآن مازال العالم كامل البصراوي في زيارة للمريخ لتبادل وجهات النظر مع بعض علماء الكائنات الحية

حول هذه القضية التي غدت شاغلة للجمهور.

ملاحظة: لأن أرشيفنا الورقي لم يحفظ كاملاً، لم نستطع العثور على الاستطلاع الذي أشارت إليه الأوراق، هذا إذا كان المقصود صحيفتنا وليست صحيفة أخرى وجدت في العهد الماضي بهذا الاسم أيضاً، نقول هذا لأن جريدتنا في ذلك العهد لم تكن من الجرائد المرموقة!!.

الهوامش:

(١) أدرجت هذه الأوراق تحت مسمى «قصة قصيرة» بناء على اقتراح العالم الاجتماعي ياسين الحداوي. وشمل اقتراحه أن تكون بهذه الصورة محكاة لما كان عليه العرف في كتابة القصص في ذلك العهد، وقد ثبت اسم من كتب تلك الأوراق وفق بطاقة شخصية تحمل اسم (عبده خال) للجثة التي وجدت داخل القبر.

(٢) كلام مطموس لم تستبين منه اللجنة ما يمكن أن يؤول.

(٣) يوجد كلام مطموس لم تستطع اللجنة المعنية بقراءة هذه الأوراق قراءة فقرة كاملة ولم يشأ أحد منهم وضع كلام بديل وغلّب بعض الدارسين لهذه الورقات أن الفقرة المطموسة فيها توصية من قبل اللجنة المشكلة لدراسة انبعاث الرائحة تحمل في معناها أن الأمر لا يعدو كونه رائحة ليس بها من خطر على بقية المدينة ولا تستوجب كل هذا الهلع. إضافة إلى ذلك لم يعثر في سجلات المحافظة على مثل هذا التقرير مما يجعل الأمر يبدو وكأنه اختلاق في اختلاق. لكن الأمر المحير عدم وجود تفسير منطقي لمثل هذا الموت الجماعي.

(٤) ذكر اسم شخص، لكن الاسم لم يكن واضحاً فاستبدل بالتعبير الشائع (قال قائل منهم).

(٥) كلام مطموس.

(٦) علماء الاجتماع لم يشرحوا لنا سبب هذا التحرز الشديد ويبدو أننا في حاجة لدراسة الأوضاع الاجتماعية السائدة في تلك الفترة وأسباب هذا الانغلاق الذي تشير إليه الأوراق.

(٧) كلام مطموس.

الصفحة الإلكترونية من جريدة «الحوار» الصادرة في تمام الساعة الواحدة ظهراً بتاريخ ١٢ - ٤ - ٢٠١١م.

٣

الذباب

ما زلت أحمل كرت التوصية وأقف أمامه بارتباك، وعيناي تركضان في هذا المكتب الأنيق ببلادة وثمة قلق ممزوج بضيق يتمدد في صدري وثمة خاطر يخاتلني:

– خرجنا كلنا من رحم واحدة، فلماذا هناك سادة وعبيد؟

أكان لا بد من أن أقف هذه الوقفة المخزية، وقفة أشبه بالتماثيل المصنوعة بيد نحات يثير السخرية من منحوتاته المشوهة. بوقفتي تلك كنت ممثلاً للغفلة، أقف مرتبكاً محتزماً نصف قامتي حيناً ومسبلاً يديّ أحياناً، أحك بمقدمة حذائي وبر السجاد الناعم متابعاً التعرجات التي ترتسم على ذلك السجاد ذي الوبر الغزير ومبعثراً خواطري خارج هذا المكتب.

كلنا مياه لزجة طلحية قذفت في ليل بهيم. فمن أين تأتي هذه القوة لتشكل مياهنا وتجعل منا الآمر والمطيع، العزيز والذليل، السيد والعبد؟

مضى نصف ساعة على وقفتي هذه من غير أن تنبس شفتاي بكلمة. خلال هذا الوقت الذى استطال تمنيت لو أنني أستطيع الركض خارج هذا المكتب فلم أعد راغباً في العمل، تطلعت إلى هذا الكرت الذى أحمله، هذه الورقة الصغيرة الأنيقة التي لا تحمل سوى جملة غامضة ومبتسرة وتشي أن ثمة دناسة تلتصق بها:

عزيزي أبو حسام:
حامل الكرت إنسان عزيز، أرجو تدبير أمره

مع تحياتي

هذه الورقة الصغيرة الفاخرة تحاول دفع الدناسة عنها، بنصاعة أرضيتها، وتصميمها البديع، وأحرفها المنمقة كخيوط حرير تشابكت وتمازجت كأغنية احتفت بلحن النهوند الحزين الباعث على دفع الآهات والشجن المر، ورقة أنيقة تخفي خلف جمالها دم فاسد وإثم عظيم.

هذا الكرت لم أحصل عليه إلا بعد ركض استمر شهوراً عدة بدأت بوعد من جارتنا التي دأبت على مجالسة والدتي في الضحى لتناول أقداح القهوة ومضغ لحوم الغائبات من الجارات اللاتي تأخرن عن موعدهن في مشاركتهما تناول فنجان الصباح، وكانت والدتي تستريب من جارتنا تلك بسبب كثرة معارفها وتبرج لسانها غير متورعة عن ذكر إعجاب الرجال بقوامها الهارب من غلالة، ومدعية أن عيونهم ترفّ بين نهديها الشامخين، ومقسمة أن أحداً لم يجرؤ

على بناء عشه على قمتيهما حين تشيح عنهما عباءتها في محاولة إغواء صغيرة. كان لسانها السافر يغريني باستراق نظرات خاطفة لتلك القمتين اللتين تغدوان كهضاب الزبد وكلما انحنت لتناول فنجان قهوتها تبدوان كجنينين حبستهما رحم ضيقة فتقلصا بتكور مضنٍ.

اقتنصت نظراتي المتورطة بين أدغال إبطيها مراراً، وفي كل مرة تتركني هناك أتلصص للوصول إلى نهاية جذعها من غير أن تكترث كثيراً بصدّي، وإن كنت أحس أنها تمنحني فرصة لتشمم روائح تلك الغابة حين تمد لي بشيء ما، فتدنو حتى تترك شيئاً من جسدها رهينة صدري وتسبل عينيها في حركة غير بريئة البتة.

كانت أمي تزدريها في أحيان كثيرة. وعندما تجدها تقف على الباب تمنحها لساناً متزلفاً وتجالسها، حتى إذا خرجت رمتها بالظنون المشينة ولا توقفها إلا باستغفار ملغ وسرد كل أذكار استغفار المجلس وتنهي أدعيتها ببراءتها من تحمل غيبتها. يبدو أن وقوفي كأعمدة الإنارة الخربة جعلها تمعن في التودد إلى جارتنا ودعوتها في كل حين لتبادل الأحاديث متزلفة إليها بمحبة فياضة، ومع هذا الإغداق المفرط تواصلت زيارات جارتنا وغدت جليستها الدائمة، وفي لحظة اعتداد بنفسها وعدت والدتي وعداً قاطعاً بأن تبحث لي عن عمل من خلال معارفها بعد أن اشتكت لها أمي سوء حظي وعثراتي التي لا تنتهي وخشيتها أن أهيم في الشوارع، فرفعت خصلة شعرها وهي تطرقع بلبانة ملت من مضغها:

- أعدك أن أجد له عملاً في القريب العاجل فقط امنحيني بعض الوقت.

فحضنتها أمي متوددة ومتصنعة تقبل فيضان جمائلها التي لا

تنضب، وغالت في تصنعها بأن أخرجت من دولابها قطعة قماش أقسمت أنها لم تشترها إلا لها، مبيّنة أن هديتها ليس لها علاقة بصنيعها الذي تعتزم القيام به، فمدت جارتنا يدها وتناولت قطعة القماش بتأفف مظهرة ولعها بشراء الغالي من الثياب وذاكرةً محلات الأقمشة التي تبتاع منها، فغاصت أمي خجلة من تبجحها حيال رخص تلك القطعة القماشية لكن جارتنا مسحت صلفها بجملة باترة:

ـ الهدية ليست في قيمتها.

وأطلقت أسارير وجهها من جديد:

ـ ما هي إلا أيام ويكون ابنك موظفاً يشار إليه بالبنان.

فرفعت أمي يديها للسماء تمطرها بالدعوات التي لم تكن جارتنا جديرة بأدناها.

وتسلسلت التوصيات، وفي كل مرة كنت أحمل كرتاً من شخص الى آخر حتى أثمرت كل تلك التوصيات حصولي على هذا الكرت.

عندما تسلمته شعرت بضآلته، وكدت أقذف به وأعود للتسكع على أرصفة المدينة، لكن جملة صارمة انبرت من أحد الأصدقاء جعلتني أتمسك به بشدة.

ـ بواسطة هذا الكرت أنت تمسك بوظيفة أكيدة، فإياك ثم إياك والتفريط بهذه الفرصة الذهبية.

اكتشفت أهمية هذا الكرت حين كنت أعبر دهاليز دائرة الشرطة، فما أن يستوقفني أحد وأبرز له ذلك الكرت حتى

يسمح لي بالدخول إلى أماكن لم أكن لأجرؤ على الاقتراب منها، أو التفكير بالوصول إليها. وعندما وقفت أمام بابه رأيت مجموعة كبيرة من المراجعين تستعطف ذلك الرقيب العجوز لأن يسمح لهم بالدخول، لكنه كان يقف بكل صرامة أمام أي طلب رافضاً حتى الشروع في الحديث. كان فمه يطبق على تعب سنين طويلة ويجاهد نفسه للوقوف لأداء التحية العسكرية إذا مرت بنا إحدى الرتب العالية.

عندما وقفت أمامه نحاني بيده جانباً ـ بالرغم من إبراز كرت التوصية ـ فامتثلت لأمره وأخذت أنتظر أن يسألني مرة أخرى عن أمري، لكنه لم يلتفت إلي فتجرأت ووقفت أمامه مباشرة ومددت الكرت في وجهه ـ هذه المرة ـ وقلت بصوت واثق:

ـ أحمل له هذا الكرت فأنا على موعد مع سيادته وأخشى أن يمر الوقت المحدد من غير أن تخبره.

لم يكترث بي بل أبعدني عن وجهه بيده:

ـ استرح

شعرت أنني أتضاءل وأن كلماتي التي أطلقتها كانت محل تندر البعض، فرفعت صوتي بحزم محاولاً إكساب نفسي أهمية:

ـ أقول لك أنا على موعد مع سيادته ألا تفهم؟

نظر في وجهي بإرهاق، وكمن يزيح تعباً إضافياً تمتم:

ـ الكل هنا يقول إنه على موعد.

وكمن يواسيني تمتم:

ـ انتظر قليلاً، لقد منع دخول أي شخص.

كدت أتراجع لولا أن امتد بداخلي الخجل من تلك العيون المحلقة بهيئتي فتابعت على الفور:
ـ سوف أحملك مسؤولية هذا التأخير.

وعندما رأى تصميمي تناول الكرت ودلف الى داخل المكتب، بينما كنت أسترق النظر لتلك الوجوه التي ترمقني بمشاعر مختلفة، فهيئتي لا تعزز الثقة بأهميتي، لسعني خاطر مقيت:
ـ هذه الوجوه تأتي من دهاليز النساء.

ربما تبادرت إلى ذهنهم صورة جارتنا التي تقصع متلبنة وهي تقسم أن جسدها الهارب من أغلاله يخطف اللباب، وأن ضحكتها تفتح الأبواب الموصدة، وأن محاولة الإغواء الصغيرة التي تقوم بها تجعل وعودها مفاتيح ذهبية، وكلما حاولت إبعادها عن مخيلتي طفحت تتثنى بملابسها التي تخلت عن دورها حيال جسد يتراقص ويفور برغبة متأججة تهدمت بجوار زوج عشق الإبحار في الموانئ البعيدة ..ربما كان الكرت يحمل رائحة الدناسة تلك..!!

عاد الرقيب ماداً الكرت ليدي ومفسحاً المجال أمامي للدخول ومانعاً بيده الأخرى مجموعة حاولت التملص ومرافقتي ...لفحني هواء المكيف البارد وشعرت أنني أقف معلقاً، فقد كان المكتب واسعاً وثمة شخص يجلس خلف مكتب أنيق، فتوجهت عمودياً باتجاهه، ومددت يدي بالكرت الذي أحمله فصدرت عنه حركة لم أع أهي دعوة للجلوس أو الانتظار فوقفت متخشباً، وكلما حاولت أن أتحدث أتراجع أمام انهماكه

ولا مبالاته. كان يجلس خلف مكتبه ـ بجسمه الفارع وملامح وجهه العتيقة القاسية ـ منكباً على الكتابة وثمة تأفف يطفح من خلال تجاعيده المشمرة عن عبوسها. اختلست النظر لرتبته المعلقة على كتفه وكلما حاولت أن أتذكر تسلسل الرتب العسكرية، أعجز ولا أقدر أن أحدد في أي سلم من سلالم العسكرية يقع التاج والمقص. كانت أعلى رتبة عسكرية عرفتها رتبة ملازم حينما تناقل أهل الحي أن إسماعيل ولد السقا أصبح ضابطاً في الأمن العام وكف الناس عن تعييره بلقب (الزفة) وأصبح محل حفاوة الجميع، وكنت أمني نفسي بأن يحتفل بي أبناء الحارة أسوة بإسماعيل الذي كان يشاركني اللعب والبلادة.

عندما صرحت لأحد الأصدقاء بهذه الأمنية ضحك في وجهي كثيرا وأردف:

ـ إذا عملت بالعسكرية فستكون جندياً ممسوحاً لا تحمل على كتفك إلا الأوامر.

لكنني تماديت في عنادي وتغطية عجزي:

ـ سترى عندما أعود وأنا حامل نجمتين كما حملهما إسماعيل وربما أجد أكثر منها.

ضحك حتى امتلأت عيناه بالدموع:

ـ يا عم نجمتين..

أحسست بحرقة على نفسي من تلك السخرية فتطاولت بعنادي:

ـ سترى.

تابع سخريته:

– صحيح، فأمثالك يقضون كل الليل ساهرين والخوف أن تعود لنا وأنت تحمل نجوم السماء مجتمعة..

وتركني وهو يلعن العناد الأجوف والمكابرة التي قذفت بأمثالي في طريقه.

يبدو أن سحر هذا الكرت توقف، فبعد أن يتر لي مقابلة صاحبه كف عن العمل، ها أنا أقف كأحد أعمدة هذا المكتب لا أجرؤ على الجلوس أو الكلام. هذا الصمت المهيب جعلني أحرك عيوني بحثاً عن أي شيء أتسلى به وأقتل هذه الدقائق التي تطحنني. في المكتب نافذتان إحداهما غربية والأخرى شمالية تغطيهما ستائر من الساتان امتزجت ألوانها بأرضية سوداء وتداخلت لتعطي أشكالاً هندسية خلابة، وفرشت أرضية المكتب بـ(موكيت) سكري ذي وبر غزير بينما استقر المكتب في صدارة الغرفة ممتداً بمسافة ثلاثة أمتار، لونه التمري اللامع يشي بثمنه الباهظ وقد استقرت عليه ملفات ومقلمية ودباسة وصورة لطفلين تتقافز من عينيهما شقاوة محببة.

في انشغالي خشيت أن يحدق بي فجأة أو يتحدث معي، فتركت كل شيء وترقبت أي لفتة منه،كان لايزال منهمكاً في الكتابة وقد طرأت عليه (نرفزة) مفاجئة فهش بيده صعوداً وهبوطاً. كانت ثمة ذبابة زرقاء كبيرة قد استقرت على المكتب وحكت برجليها مؤخرتها وغرزت بوزها للأسفل وعاودت التحليق واستقرت على خشمه، وجنتيه، شاربه، شفتيه المتخاصمتين. كانت تحط على أي جزء من وجهه وتطير من أدنى حركة تصدر من يده وتستقر على المكتب ثم تعاود التحليق والهبوط على برحة وجهه الواسع بخفة

وسرعة خاطفة. المكان الوحيد الذي كانت تستقر فيه للحظات وتنعم بقليل من الراحة كان بين شفتيه المنفرجتين اللزجتين فتهبط وتمد بوزها وتغرسه في الشفة السفلى حتى ترتوي وتستند إلى قوائمها الخلفية في قفزة سريعة مرتجفة لتعاود التحليق مرة أخرى، ازدادت حركة يديه وفار وجهه بالضيق، تلاقت عينانا فرمقني بازدراء. كنت متحفزاً فمددت له الكرت الذي أحمله، لم يمد يده واكتفى باختلاس نظرة سريعة ومباغتة للكرت الذي أحمله، وعاد للكتابة.. وعدت أحدق في ذلك المكتب الواسع وأتمنى لو أنني أستطيع أن أتحرك لأهرب من هذا الموقف. كنت أفكر جدياً في ترك مكتبه وكلما هممت بذلك تداعت إلى مخيلتي صورة أمي التي ستصفني بأقذع النعوت لو أخبرتها بنكوصي، وستذكرني بكل ما صنعه أبي معها، وقد تتمادى في ذلك وتنعتني بـ(ذيل الكلب). قد ضقت ذرعاً بها وبتذمرها وتذكيري الدائم بما جناه أبي على حياتها وما خلفه لها من حرائق لم تطفئها عظام أبي الرميم كانت تقول دائماً:

– لم يرض أن يذهب للآخرة من غير أن يترك له صورة تذكرني بعذابي معه.

وسرعان ما تفور ذكرياتها القديمة فتلعن اليوم الذي جمعها برجل لم يكن يعرف في الدنيا من شيء سوى الارتماء على السرير والشخير في كل الأوقات، وقد تقذفني بأي شيء في يدها صائحة بغيظ:

– يلعن أبو هذا البطن الذي حمل بذرتك.

ما زلت أقف أمامه متخشباً متمنياً لو أنني أستطيع الهرب، وراودت نفسي بذلك مراراً، بعد أن طمأنت خواطري المتهيبة من غضبة أمي بتدبير حكاية محكمة الإتقان تقنعها بعدم جدية من ذهبت إليه وإذا

لم تصدقني فلتقل ما تقول، أريد فقط أن أهرب من هذا الذل المقيت.

أجدني أقف أمامه كالأبله ومن غير عمل شيء سوى التحديق به والاستمتاع باحتقار تلك الذبابة لأنفته والاقتصاص لي بارتوائها من جرف شفتيه المتخاصمتين. رأيتها تقف عند جذر أسنانه كبهيمة ترتوي من نهر دبق، رجلاها مستندتان إلى جذور أسنانه المخضرة وفمها غارق في ريقه الدبق الذي ارتفع منسوبه وكاد يطفح للأعلى بغير اكتراث من صاحبه، كان مهتماً بتسويد تلك الورقة التي أمامه بكلمات غامقة رشيقة الحروف،كان كل شيء في وجهه صلداً قاسياً باستثناء ذلك النهر الذي جرى بين شفتيه المتباعدتين .. يبدو - الآن - أنه لا يستطيع تكملة الكتابة فكلما استقرت ريشة القلم على الورقة رفع يده هاشاً تلك الذبابة الزرقاء التي أصرت على مضايقته ومواصلة عبثها لتحطيم صخور وجهه. قذف بالقلم جانباً واستدار بجذعه الأعلى خلف كرسيه ضاغطاً على مفتاح جرس استجاب له حارس المكتب بسرعة عجيبة .. ليظهر ذلك الرقيب العجوز بقامته المنحنية والتي جاهد كثيراً لاستوائها وتأدية التحية العسكرية حيث خطا خطوات سريعة لا تتناسب مع عمره الكبير وألقى بالتحية بانضباط ينقصه النشاط والحيوية، وقبل أن يسدل يده من على جبهته كان الصراخ يملأ فضاء المكتب:

- ألم أقل لك .. لا تسمح لأحد بالدخول؟!

تلعثم الرقيب وبلهجة مبعثرة اعتذر:

- قلت لك إنه مبعوث من عند (أبو وائل) وأنت أخبرتني أن أسمح له بالدخول حين استأذنتك بذلك.

وابتلع ريقه بصعوبة وأكمل:

– صحيح أنك لم تتكلم ولكنني فهمت من إشارتك أنك موافق.

رمقني بنصف التفاته وكأنه تنبه لوجودي.. كانت التفاتته أقرب إلى الاحتقار من الترحيب وصاح بالرقيب:

– هناك من أزعجني ولم يمكنّي من استكمال كتابة تقرير في غاية الأهمية.

تطلع إليّ الرقيب معاتباً، فتحت عينيّ على اتساعهما وحاولت إخباره أنني حافظت على تخشبي منذ دخولي إلى هذه اللحظة، كان ينظر إلي بإجهاد ولا يعرف ماذا يصنع، وأخرجته من تردده تلك الصيحة العنيفة التي صدرت من سيده:

– هيا قم بعملك.

– ....!!

– خلصني من هذا الإزعاج فأنا غير قادر على العمل.

تحرك الرقيب باتجاهي وأمسك بيدي في محاولة لإخراجي، فازداد تهيجه:

– ليس هذا!!

– ليس هناك من أحد سواه يا سيدي.

– بل هناك.

وكزّ على أسنانه:

– أنت مهمل لا ترى إلا القريب من عينيك اللتين أكلهما الزمن.

ارتبك الرقيب كثيراً، وبتمتمة أقرب إلى الرجاء تساءل:
ـ ومن هو ذاك يا سيدي؟

كان لا يزال جالساً خلف مكتبه وصوته يتطاير من بين شفتيه المتخاصمتين:
ـ أنت لم تعد تصلح إلا لعد ما تبقى لك من أيام ..لا أعرف كيف بقيت ممسكاً بوظيفتك إلى الآن؟

كان الرقيب زائغ البصر يتلقى تلك الكلمات النارية ولا يعرف ماذا يفعل، أعاد محاولة الاسترضاء:
ـ سيدي، إنني أقوم بما تأمر به على أحسن وجه.. من ذا الذي ضايقك وسأخرجه في الحال.

صاح به حانقاً:
ـ ها أنت تضيع وقتي بأسئلتك السمجة.

وأردف متعجلاً حتى أن لعابه تطاير على سطح المكتب:
ـ لا أريد إضاعة الوقت أكثر مما مضى.

وحين لمح أن حارس مكتبه ما زال شارداً حائراً صاح:
ـ اقترب لا طوّل الله لك عمراً.

وأشار بغيظ صوب تلك الذبابة الزرقاء التي استقرت على المقلمية، فتحرك الرقيب صوب تلك الإشارة وأخذ يتطلع، وتمتم:
ـ والله لقد قمت بتنظيف كل بقعة في المكتب أكثر من ثلاث مرات كي لا أغضبك.

صاح بانفعال مبالغ فيه:

- أنا لا أتحدث عن نظافة المكتب يا غبي ..
- !!!!!
- ...بل عن هذه الذبابة التي لم تجعلني أكمل مهمتي..
- !!!!!
- فكيف سمحت لها بالدخول؟ عليك بإخراجها الآن!!

اتسعت حدقة الرقيب وردد من دون قصد:

- ذبابة.
- أو تراها حصاناً يا غبي؟ نعم ذبابة.
- ولكن..
- لا أريد كلاماً زائداً. ألا تعمل هنا حارساً وتتقاضى راتباً ..هيا قم بعملك وأخرجها.

تحرك الرقيب بسرعة صوب الباب، فصاح به:

- إلى أين أيها الأبله؟
- سأحضر الفليت.

صاح الضابط بغيظ كمن يهم بتمزيق ملابسه:

- ألا تعلم أن المبيدات تسبب لي حساسية وستعيق تنفسي لشهر كامل؟

رد الرقيب من غير شعور:

- نعم، نعم تسبب لك حساسية.

وظل شارداً، ليصيح به:

ـ هيا أخرجها بالهش أو بأي طريقة كانت.

وبهمة بدأ الرقيب هش الذبابة التي أخذت تنتقل من مكان لآخر، والرقيب يتبعها أينما اتجهت، وقد خلع (البريه) وأخذ يضيق عليها الخناق في زوايا المكتب فتمنحه قليلاً من الفرح وتعاود التحليق في الأماكن الواسعة والتي يصعب فيها ملاحقتها، أو تتجه مباشرة إلى وجه سيده فلا يقدر على شيء سوى انتظار أن تغادر ذلك النهر الجاري إلى مكان آخر. لم يكن قادراً على التركيز فحين يتابع تحليقها يسمع أمراً وبعض الشتائم المندلقة تغير من اتجاهه وكلما دنا منها غيّره أمر أو شتيمة فتابع هشها بعشوائية، فجأة وجدت نفسي أشاركه متابعة تلك الذبابة الزرقاء وهشها فكانت تنتقل بخفة وسرعة. صاح بنا محقراً:

ـ يا أغبياء افتحوا الباب وهشوها باتجاهه.

صاح الرقيب:

ـ نعم هذا هو الرأي الصائب.

وجدت أن هذه الشتيمة قد أدخلتني في دائرة اهتمامه فقد سمعت أمي توصيني في إحدى المرات:

ـ إذا سبك الكبير فهذا بداية الخير الكثير.

فدعوت الله أن يمكنه من شتيمتي مرة أخرى!!

اقتربت منه ملاطفاً:

ـ سيدي هل تريدنا أن نمسكها حية أم أنك لا ترى مانعاً من سحقها؟

تطلع علي في دهشة وسالت شتيمته كمطر منهمر:
ـ قبحك الله ..يا وغد.

لا أعرف بالتحديد بقية تلك الشتائم فقد تفانيت في إظهار الحرص على إخراج تلك الذبابة هامساً في أعماقي:
ـ (يا ولد شد حيلك) ربما تكسب بعض رضاه.

فانبريت أوجه الرقيب الذي كان يتحرك بصعوبة وقد بدأ الإعياء يجري في مفاصله، وثمة تمتمات يهمس بها في داخله بحذر، لأجد نفسي أصيح به:
ـ تعال من هنا.

وأخذنا نهشّ.. الذبابة وأثناء الهش كانت تراوغنا من أجل الوقوف على شفتيه فوقفت حائلاً بينها وبين مرادها في محاولة مستميتة لمنعها من إعادة هبوطها المستمر على وجهه حتى إذا ضيق عليها الرقيب الخناق وأصبحت على مقربة من الباب أسرعت على عجل بفتح الباب الذي وقف خلفه مجموعة كبيرة من المراجعين والذين رأوا الغضب يتطاير من وجه الضابط بينما رأونا نهش تلك الذبابة التي استطاعت التملص من الزاوية التي حشرها بها الرقيب فعادت للتحليق في أرجاء المكتب، وقفوا للحظات متأملين حركاتنا مبدين دهشة لتلك القفزات المتتالية، وحين فاض الغضب صاح الضابط صيحة أحسست أنها شققت سقف حنجرته:
ـ قلت ..أخرجوها.

صحت بالمتجمهرين:

ـ ألا تسمعون؟ ساعدونا في إخراج هذه الذبابة اللعينة.!!

انبرى أحد المراجعين لمساعدتنا بعد أن قذف بملفه جانباً، فاكتشفت فداحة ما قلت حين وجدت أن جميع المراجعين تدافعوا لمزاحمتي في هش تلك الذبابة الزرقاء !!.

الماء يسير باتجاه واحد

أخبار الذي صعد إلى السماء:

- **نزيل عمارة الشرقي يختفي ولا يترك خلفه سوى أساطير غامضة**
- **المحرر يقف في مكان المختفي ويكتشف الكارثة.**

كتب ـ يوسف الغالب

ليس هناك إلا رائحة رخوة دفينة تجوس المكان ببلادة وتلكؤ.. الغرفة تبدو معتمة بعد أن أسدلت ستائرها، وتموجت بداخلها فوضى مضطربة فلم يبق ثابتاً إلا تلك اللوحة الزيتية العتيقة وذلك الرنين المتواصل.

كانت (هنفة) قامته توشك أن تنطبق على تلك اللوحة التي سكب فيها عينيه وزفراته.. رنين الهاتف ينزعه من تأمله ـ بإلحاح ـ فيتحرك ببطء شديد، ويرفع سماعة الهاتف، وينصت بوجه جامد كجدار

قديم، فجأة تهاوى وظل صامتاً بينما عيناه تقطران دمعاً غزيراً أخذ يكفكفه بيده، مغالباً نشيجاً اختلج بصدره حاول جاهداً إخماده، فاعتصره وكلما أمعن في ذلك تهاوى حتى أصبح كجذع متفحم.. تمتم بصوت متداع:

ـ لم أعد صالحاً لشيء سوى الموت.!!

خرجت كلماته باردة واهنة، وكأن الموت بدأ ينمو في مفاصله، ولم يرد على جملته تلك شيئاً، فقد أرخى سماعة الهاتف في حين كان ثمة صوت نسائي ينز من الطرف الآخر.

عادت الغرفة تسبح في سكونها، فأسلم جسده لأحد الكراسي، وتناول سيجارته، واجترّ نفساً عميقاً، وترك عينيه تتابعان زوبعة الدخان المنبثقة من فمه بكثافة.

كل شيء فيه يبدو متآكلاً: عيناه تطفحان بالغمس، وأجفانه المتكسرة تشاجرت في عراك محموم. شفتاه قاتمتان سوداوان تقرشف على طرفيهما زبد متيبس.. شعره ملبد محروق كبقايا ثوب بالٍ أكلته أشعة شمس عمودية، وسحنته باهتة شاحبة غادرها الدم ولم يبق لها سوى زرقة تذكرك بالجثث سيئة التحنيط لا شيء يتحرك فيه سوى نفس بطيء يدخل، ويخرج برتابة الليل الموحش.

تحرك كعجوز هرم واستلقى على سريره الرث كجثة يسير فيها العطب بخطى حثيثة. أسند رأسه إلى وسادة، وأشعل سيجارة أخرى وعلق بصره في لوحة تدلت إلى جانب الجدار.. تلك اللوحة التي تمثل سفينة موغلة في الإبحار وعلى متنها استقر راكب واحد له ملامح غائمة ويشير بيده اليمنى باتجاه موجة نافرة تقافزت إلى مقدمة اللوحة متخذة هيئة وحش أنثوي بينما كان لون السماء

داكناً اختلط بحمرة ملبدة، وفي فضاء اللوحة كان ثمة طائر ضخم ضم جناحيه للأسفل فبدا حائراً بين التحليق والهبوط، وفي أسفل اللوحة اندفع الماء بغزارة.

هذه اللوحة تستأثر به فيمضي معظم الوقت أمامها متخشباً صامتاً خاشعاً لا يبرح مكانه حتى تفور عيناه فيغطي وجهه بكلتا يديه ويركض صوب سريره الرث يجتر الدخان والتأوهات.

في خارج هذه الغرفة الرخوة الرطبة كانت السماء تتهيأ لأن تسكب ماء مدراراً حيث بدت بروق صغيرة تلمع في الأفق وتشحذ أسنتها في البعيد حتى إذا تهاوت الرعود من علياتها، استجابت لندائها بخطوات حثيثة مكنتها من الوقوف على رأس المدينة وقرعتها برعد تصدعت له الأرض.

على صوت الرعد الضارب انزلقت عيناه من على تلك اللوحة وجحظتا بفزع، وتموجت بجسده ارتعاشة قوية، فتدثر بغطائه الشوكي وقضم عروقه بجزع مستجمعاً أنفاسه اللاهثة في محاولة لكبح هذا الفزع الطارئ، بينما كان يحاول ابتلاع ريقه الناشف بصعوبة. ظل على هذا الوضع للحظات، حتى إذا أفرغ الرعد حمولته وبرقت غرفته بوميض خاطف لبرق تشظى على مفرق المدينة، عاد إليه هدوؤه قليلاً فأشعل سيجارة أخرى ومد نفسه نافثاً الدخان باتجاه تلك النسمة المبللة برذاذ المطر ورائحته القادمة من نافذته المطلة على الشارع.

كان رنين الهاتف المتواصل لا يزال يقرع أذنيه، ومن بين ارتعاشاته وخوفه نهض بتثاقل متلحفاً بغطائه الشوكي واتجه صوب النافذة،

وقف بشكل صنمي يتطلع للخارج والريح الباردة تلفح وجهه فيزداد انكماشاً. ظهر الشارع فقيراً من المارة ..قلة من الرجال تقاطروا فرادى وحزموا عظامهم بملابسهم الصوفية مادين خطاهم على عجل لتلتهمهم الأزقة المخبأة في جنبات الشارع الممتد.

رذاذ خفيف يتقطر على زجاج النافذة فيمد يده صوب تلك القطرات، يغمس سيجارته فيها فتتشقق السماء عن ثقوب واسعة تسفح ماءها بغزارة. ارتفع صدره عالياً وأجهش بالبكاء.

≈

إلى هنا والأحداث مقطوعة والزمن مفتوح..

≈

الشارع بحيرة صغيرة يقطعه المارة بسرعة وعجلة غريبة. كان يسير خلف السمسار يحمل حقيبته وتجهمه تاركاً ضيقاً يطفح من بين تلك الملامح المثنية ويصيح بالحمال بتأفف:

ـ إياك أن يسقط أي شيء مما تحمل.

كان السمسار يسير أمامه متودداً ومفسحاً له الطريق في دهليز معتم ينتهي بباب بنى عليه العنكبوت حاول جاهداً أن يشغله عنه، وأدار المفتاح فهادى الباب بصرير مزعج ليكشف عن سيب استقرت على جنباته فتحات لحمام ومطبخ وصالة صغيرة وانتهى بغرفة انبعثت منها رائحة رخوة دفينة مقززة كأن ساكنيها غادروها من أمد طويل تناثرت أعقاب السجائر وملايات الأسرة في أرضيتها..

ولوحة لسفينة غارقة لم يتبق على متنها سوى عمود محترق على هيئة شخص يشير للأمام وسماء صافية إلا من طائر غريب سقط أسفل قامة امرأة انتصبت في مقدمة اللوحة وبيدها خنجر صدئ.

وكان ثمة صنم التحف بغطاء شوكي ـ يجاور النافذة المطلة للشارع الخارجي ـ نحت بشكل رائع لشخص كأن الموت اقتاته للتو ظلت عيناه متقدة وهاربة بضوئها صوب البعيد ويده مرفوعة وكأنها تحاول دفع كارثة أقبلت مباغتة.

كان المستأجر ينظر إلى محتويات الغرفة بازدراء وابتسامة السمسار المترجرجة تشجعه ولسانه يسيل:

ـ تأكد أن قليلاً من الترتيب سيحيلها إلى تحفة تفاخر بها زملاءك.

ويضجر رد عليه:

ـ أأنت متأكد أنها تصلح للسكن؟!

≈

في إحدى الصفحات الداخلية المهملة والتي يحكي فيها المسنون ذكريات تنبثق من حناجرهم المكللة بآهات وحسرات تُحضر قرأت ما رواه أحد أولئك المسنين أن في حيتهم عمارة لا تصل إليها الشمس وتظللها سحابة على مدار العام، وكنت أبحث عن تحقيق صحافي أكسب به رضى مدير التحرير الذي طالما نعتني بأنني لا أصلح لشيء سوى فبركة الأخبار السهلة التي تبثها الوكالات أو التي تصل عبر الهاتف.

عندما قرأت تلك المقابلة والتي ابتسر فيها المحرر تلك الحكاية في جملة مقتضبة (انبعاث أسطورة من داخل عمارة مهجورة) حدثتني نفسي أنني قادر على إنجاز سبق صحافي، وبعد اتصالات عديدة تعرفت إلى تلك العمارة وتوجهت مباشرة لإجراء هذا الاستطلاع.

لا أحد يعرف مصير نزيل الدور الأرضي من عمارة الشرقي وإن ظلت هناك كثير من أقاويل وأخبار يتناقلها الناس عن ذلك النزيل بشيء من القداسة، وقلة هم من يسخرون من حكاياته، ومهما يكن الأمر فإن معظم تلك الأقاويل كان يكتنفها غموض كثيف وليس من اليسير كشف الحجب التي تسربل بها.

يقولون:
ـ صعد إلى السماء!!

هذا هو التفسير الجاهز لحادثة لم تستوعبها الذاكرة الشعبية لأبناء تلك الحارة المغروسة في مؤخرة المدينة والتي تكتظ بمهات الأساطير والطلاسم، وتغدو الأساطير ذات إغراء لا يقاوم خصوصاً أنها تحمل المرء من عالم سافر ومضنٍ إلى عالم اللامعقول، عالم الحلم، عالم تتحقق فيه كل المستحيلات. فالحياة أسطورة مقلوبة ومن نظر إليها بهذه الصورة اكتشف كل الأسرار المخبأة، وأغلب الظن أن هذه الحادثة كانت بمثابة المخدر الذي يتسلل في الأوردة ليترك ضحاياه مقذوفين بين الحلم والنشوة.

لم أكن لأصدق تلك الحكايات التي انثالت على مسامعي أثناء إجراء هذا الاستطلاع وإنما كانت تنازعني أفكار شتى:
ـ لماذا تلغي الذاكرة الشعبية المنطق وتنقاد للأسطورة؟!

ولماذا يتم فصل الواقع عن ظروفه في البيئات المتخلفة؟!

وتبادرت إلى ذهني الروايات التاريخية وما تصبغه على أبطالها من قوى أسطورية يناقضها ما لدينا من منطق معرفي، وظل سؤال يحيرني:

ـ ما مدى استخلاص الحقائق من كل هذا الكم الهائل من الحكايات؟!

هذا الاستطلاع يهدف في الأساس إلى الاقتراب من تلك الأسطورة التي نمت وتناقلتها الألسن بصور مختلفة ومتباينة.

ولكي لا أغامر في تحقيق فاسد فكرت في أن أقطن تلك الشقة، ولأنني أخاف كثيراً فقد قمت باستئجار شخص يقطن تلك الشقة ويحدثني عن تجربته. لكن ذلك الشخص غاب ولم أره بتاتاً. ربما كان أحد ضحايا تلك الأسطورة التي يؤكدها أهل الحارة، فحواها (لا يدخل أحد تلك الشقة ويعود).

في البدء قابل مدير التحرير حماستي بسخرية ـ وليسمح لي أستاذي محمد عائش بسرد هذا على القراء ـ، فحين مددت إليه ورقة أطلب فيها مصوراً، فتح فمه لتظهر أسنانه المنضدة ذات البريق الذي طالما منعني خجلي من التحديق بها، وهش بطريقة مسرحية:

- وأخيراً تحركت! ماذا تود أن تقدم؟
- موضوعاً لن أبوح به.
- كل ما أخشاه تعميق فكرتي عنك.
- سترى موضوعاً يستحق أن يظهر إمكاناتي الصحافية.

- أتمنى ذلك.

وللحقيقة كان رؤوفاً بي وحفزني كثيراً، ولا يتبادر لأحد من القراء أن هذا مديح فأستاذنا لا يكره شيئاً ككرهه للمديح.

خرجت والحماسة تشتعل في أطرافي، كان علي أن أبحث عمّن يرشدني إلى مدخل تلك العمارة التي التفّت حول نفسها كامرأة أصابها العري فلم تجد سوى ذراعيها لتستتر بهما من العيون الشبقة المحدقة بها. كان دوراننا - أنا والمصور - حول تلك العمارة مثار الريبة من قبل أهل الحي، ولم أجد بداً من مفاتحة المصور بإخراج كاميرته من حقيبتها، وكما توقعت استطاعت الكاميرا أن تجذب الكثير صوبنا وجعلت الصبية يتبعوننا من على بعد بفضول متوحش، وكنت كلما التفت نحوهم وجدت أعدادهم تتزايد، وإشاراتهم التي يطلقونها تحفز كبار السن على التحديق في وجهينا وقد استحالت في أنظارهم إلى أناس غريبي الأطوار، وكلما هممت بمحادثة أحدهم تراجعوا وتقافزوا هاربين لتبتلعهم تلك الأزقة الملتوية.

درنا - أنا والمصور - حول العمارة مراراً، وفي كل مرة نعجز عن تحديد المدخل،كان منظرنا لافتاً لأهل الحي الذين اكتفوا بالتحديق، وإن كنت أحس بهمساتهم ونظراتهم المريبة تخترق جمجمتي من الخلف.

في المرة الأخيرة دفعوا شاباً نحونا يظهر من هيئته أنه المتعلم الذي يقدمونه في مثل هذه الحالات. اقترب منا بحذر وبادرنا بسؤال مرتبك:

- هل باستطاعتي أن أقدم لكما يد العون؟!

فوجدتها فرصة سانحة لأن أتودد إليه:
- مرحباً.. هل أنت من أبناء هذا الحي؟!

التفت إلى من كان يراقبه، وهز رأسه بالإيجاب، فاقتربت منه وأطلقت ابتسامتي.
- نحن صحافيان.

لمعت عيناه، وبدون شعور امتدت يده إلى غترته لإصلاحها، وازداد ارتباكه فقال متلعثماً:
- تكتبون بالجرائد!!

هززت له رأسي مردفاً:
- ونحن بحاجة إلى العون في استكمال استطلاعنا.
- حارتنا ينقصها الشيء الكثير وهي في حاجة إلى مثل هذا الاستطلاع. هل تودان أن تصورا البيارات الطافحة أم أسلاك الكهرباء العارية، أم أكوام القمامة أم...؟

وقبل أن يكمل سرد شكواه، تداخلت معه:
- لا، لا. استطلاعنا ينحصر في موضوع آخر.
- أي موضوع؟
- نزيل الدور الأرضي من عمارة الشرقي.

ارتبك قليلاً وأمعن النظر للخلف ثم أردف:
- سأساعدكما بشرط أن أرى صورتي بالجريدة.

فأوعزت للمصور بأن يأخذ له صورة، وعندما رأى وميض الفلاش

صاح بمن يترقبونه:

- إنهما صحافيان وليس كما ظننتما.

فانطلق صوتنا مجموعة من الرجال والصبيان بينما وقف علينا رجل مسن يحدق فينا باحتقار ويتحدث بامتعاض لمن التف حولنا:

- لم يوجد الله أكذب من هؤلاء الصحافيين يكتبون الباطل حقاً!!

فلم يلتفت إليه أحد حيث كان المجتمعون يتربصون في أي اتجاه ينطلق وميض الفلاش فيتبعونه كقطط تركض خلف حبل متحرك. وما أن بدأنا بسرد أسئلتنا حتى انفتحت شهية كل منهم للحديث، وكان أول المتحدثين بواب العمارة (رجل يميل إلى البدانة قصير دقيق الملامح).

فبدا حديثه مضحكاً بعض الشيء، تنحنح ومسح زبد شدقه بالإبهام والسبابة:

- يقولون إنه يملك خاتم سليمان!!

بهذه الجملة الفنتازية بدأ حارس العمارة حديثه، فشجعته على المضي في سرد ما سمع فقال:

- لقد مضى عليّ زمن طويل وأنا أحرس هذه العمارة، وقد سمعت العجب عن ساكن الدور الأول، وقد تناقل حراس العمارة حكايات كثيرة عن هذا النزيل إلا أن أحداً لم يجزم بما سمع وإن جاءت معظم الروايات نقلاً عن الحارس الذي عاصره إذ روى:

- لم أر في حياتي رجلاً أغرب منه، فلم يكن يغادر منزله إلا لماماً، وغالباً ما يقف خلف النافذة محتمياً بستائرها الشفافة فيبدو من الخارج كشماعة الملابس. ولم أكن لأتجرأ على طرق شقته، فبعد أن فعلت ذلك في إحدى المرات أقسمت أن لا أعيد الكرة مهما حدث. كنت مكلفاً من قبل صاحب العمارة بجمع الإيجار الشهري من سكان العمارة وكان الجميع يبادر بدفع الإيجار قبل أن أطرق عليهم الباب إلا نزيل الدور الأول، فقد كنت أفاجأ به في أوقات النوم يقف على رأسي ماداً رزمة من الأوراق النقدية تفوق سداد الإيجار ولا يلتفت لملاحظتي عن تلك الزيادة، وفي أحيان أسمعه كالهمس يقول:
- ما تبقى حلال لك.

كنت دائماً أقف في منطقة متأرجحة من الوعي فلا أعرف هل أنا في حلم أم في واقع؟ وفي أواخر أحد الأشهر تباطأ عن السداد فبادرته بطرق بابه، ظللت أطرق الباب لوقت طويل، وعندما يئست وهممت بالعودة سمعت صوتاً ثقيلاً يأمرني بالدخول فدفعت الباب ودخلت،كنت أسمع الصوت من غير أن أرى محدثي، وفجأة رأيت أوراقاً مالية تتحرك في الهواء فوقفت متخشباً ولم أدر إلا وبيد تتحشر بداخل جيبي وتضع النقود وبنفس نبرة ذلك الصوت الثقيل سمعت:

- إياك أن تسألني عن شيء قبل الأوان!!

وأحسست بيد تدفعني للخارج. ومنذ ذلك العهد وهذه الشقة كما هي عليه.

صمت الحارس صمتاً ثقيلاً، ثم، وكمن ينتزع نفسه من عالم مليء بالأغلال، تابع:

- ....الآن لا أحد يسكنها وكلما نزل بها أحد غادرها قبل أن يكمل يومه الثالث.

يقولون إن هذه الشقة مسكونة وإن الذي يسكنها ملك الجان بعينه!!

وفي مكان آخر من الحي حدثنا يوسف مبارك - نجار يقطن ذووه هذا الحي من عهد الأشراف وقد نحت وجهه نحتاً كبوابة قديمة حافظت على نمنماتها رغم ركض السنوات الطوال - قال:

- في الحقيقة نزيل هذا الدور رجل مبارك وقد سمعت أبي يروي عن جده أنه سمع أناساً يقولون:
- لقد صعد إلى السماء!!

حيث يروى أن ذلك النزيل بينما كان يحاول إغلاق نوافذ بيته خوفاً من تلك الصواعق التي ضربت المدينة شوهد يخرج في ذلك الجو الماطر لملء ردائه بحبات البرد فطرقعت السماء بصاعقة مدوية انفلقت عن طائر غريب له لون الشهب الخاطفة حط عليه وأنشب مخالبه بملابسه، وخفق بجناحيه عالياً حتى غاب بين السحب.

وتحدث إبراهيم البار - تقطن أسرته بهذا الحي منذ عام ١٣٧١ للهجرة - قال: سمعت جدي لأمي في طفولتي يقول:

- لقد خسفت به الأرض!!

وروى أنه ظل طوال حياته عازفاً عن النساء، وظن كثيرون أنه عاجز

لا يقدر على إشباع شبق نساء هذا الزمن، وظل هذا الاعتقاد سائداً بين رجال الحي حتى أن أحدهم إذا رأى زوجته تجالسه وتتبسط معه لم تبلله مياه الغيرة. وكان مولعاً بتربية الإناث من الحمير فكانت له زريبة تجاور حوش المديني من جهة الغرب اتخذها إسطبلاً ليربي بها تلك الإناث، وفي ذات يوم أقسم أحد الرجال التقات أنه رآه يأتي إناث الحمير بشبق! فلم يصدقه أحد فجمعهم وسار بهم إلى الحوش، وظلوا يتربصون به حتى أتى إحداها كما يأتي الرجل أنثاه فرفع أحدهم يده داعياً عليه، وما هي إلا لحظات حتى فارت الأرض وأخرجت زوابعها وكانوا يلمحونه وهو يدور بوسط تلك الزوابع حتى غارت به الأرض. ولاتزال فجوة كبيرة تتوسط ذلك الحوش الذي خسف فيه.

وقد وقفنا على تلك الفجوة والتقطنا صوراً لها ويطلق عليها (بير العذاب)، وقد رجعت لكتب التاريخ ووثائق البلدية فلم أعثر لها على ذكر. وربما ما ذكره إبراهيم البار دخل إلى ذاكرته من خلال التاريخ الشفوي الذي تحتفل به الجماعات الهامشية بحيث تصنع لها تاريخاً موازياً للتاريخ الرسمي، ومشكلة هذا التاريخ أنه ينتهي بعد زمن قصير لأسباب عديدة قد يكون أهمها وفاة أصحاب ذلك التاريخ أو رواته، فهو تاريخ مدون في الصدور وإن ظل باقياً فيتم تناقله بزوائد عديدة تتعدد بتعدد رواته وتنتقل من كونها تاريخاً إلى كونها حكايات تسرد لتزجية الوقت، ويتم ذلك في ظل غياب توثيق التاريخ الشفهي.

وروى منصور الدرخمي عن أبيه:

ـ لقد حلق في السماء كطائر بري.

وقال رجل رفض ذكر اسمه:

ـ لقد اختطفه الجن.

بينما روى أحد كبار السن أن الرجل أحرق بالكهرباء لأنه حاول أن يطال من أحد الشخصيات المهمة.

وقال أحد أولئك المصاحبين لليل ويدعى صالح المزروع ـ كان يعمل بالعسس، وبعد تقاعده لم يجد مكاناً يجلس فيه فواصل السير في الأزقة والمنحنيات ـ:

في ليلة من الليالي المدلهمة، رأيت رجالاً يحملون برميلاً ويصعدون للعمارة، وبعد صعودهم بقليل سمعت صرخة أثارت لها الظلمة وجهها.. وجبنت عن تلبية استغاثته. وبعد أن رأيت الجناة يغادرون المكان صعدت، لأجد نزيل الدور الأول قد ألبس درعا نحاسياً ساخناً، وجمد به كل شيء، وقبل أن أستبين ما حدث، كان أحد أولئك الجناة قد عاد، وعندما لمحني أقف بجوار تلك الجثة المصبوبة، لم يتراجع بل أقبل علي محذراً:

ـ هذا رجل نال جزاءه وإياك أن تفتح فمك كي لا تجاوره.

لقد مضت سنوات على تلك الحادثة، وأسردها الآن لأنه لم يعد بالعمر بقية، فليأت أولئك الجناة لنزع روحي التي أبت الخروج بالرغم من هذه الحياة الضنكى، والتي لم تعد قادرة على مدّي بقليل من هوائها، فها أنا أجاهد من أجل الحصول على قليل من الهواء يعبر بي هذا الرصيف المتهالك.

إزاء هذا القول أردت أن أستوثق من الشرطة بالبحث في سجلاتهم

عن حادث من هذا النوع تم تدوينه في الفترة التي حددها الراوي، لكن محاولتي تعثرت، وتلقيت توبيخاً من أحد الضباط، كاد يصل إلى إدخالي غرفة التوقيف ـ أحمل اسم الضابط والمركز الذي يعمل به لمن أراد إنصافي، فأنا أولاً وأخيراً صحافي أؤدي دوراً توعوياً في المجتمع كما يؤدي هو دوره الأمني بالضبط ـ.

مع تلك الروايات المتداخلة، والمتناقضة طرأت على البال فكرة ألحت على كل تفكيري كانت تتعزز كلما تذكرت أن علي أن لا أغامر في تقديم تحقيق فاسد. كانت الفكرة أن أقطن تلك الشقة، وخشية أن يعرفني أهل الحارة ـ بعد رؤيتي بالأمس ـ فقد تنكرت في هيئة شيخ طاعن في السن وحملت معي بعض الحاجات البسيطة وانتقلت إلى الداخل تلك الشقة مبدياً عدم الرضى عنها على مسامع السمسار الذي كان يطلق ابتسامته، ولسانه يسيل تحفيزاً:

ـ تأكد أن قليلاً من الترتيب سيحيلها إلى تحفة تفاخر بها زملاءك.

كنت أنظر إلى محتويات الشقة بازدراء، ورددت عليه ضجراً:

ـ أأنت متأكد أنها تصلح للسكن؟!

رد مؤكداً:

ـ ستجد كل الراحة بداخلها، فهي تطل على الشارع ويعتبر إيجارها زهيداً ولها مميزات ستكتشفها عندما تسكنها.

كنت راغباً في الوقوف على كل التفاصيل علّني أجد شيئاً يفيدني

في تقديم هذا التحقيق. قبلت العرض، وخرج السمسار فرحاً ـ كنت متيقناً أنه كان يستغفلني في داخله، وربما خامره شعور الظفر لأنه استطاع تأجير هذه الشقة المهملة من سنين طويلة ـ

مكثت بها ليلتين:

الليلة الأولى:
أخذت أتفقد تلك الشقة:

دهليز معتم ينتهي بباب ذي لون باهت تعيش على زواياه أنسجة عناكب وأرضة نخرت طلاءه.

وجدت نفسي محاصراً برائحة دفينة، وذلك التمثال يقترب من الحركة إلا أنه صب بنحاس داكن، شيء ما يغريك أن تتأكد أنه تمثال وليس كائناً تصلبت مفاصله وبقي على هذه الهيئة. وكانت هناك ورقة صغيرة مثبتة على الحائط كتب عليها مواعيد لزيارة الدكتور وعلى أطرافها كلمات متناثرة (ما هو الحب؟ الالتزام ـ البحث عن الخلاص ـ مسدس ـ صباح ـ الموعد المحدد ١ ـ ١ ـ ١٤٠٠ ـ وصية ـ) كلمات ليس بينها رابط وقد سقط بعضها من على الورقة وتمددت فوق الحائط ذي اللون الباهت:

هنا اخترت أن يكون قبري، لا أحد يصدق حجم الكارثة التي عشتها، ولن يجرؤ أحد على الحديث عنها، أمران تقاسماني: حبيبتي ووطني، وكل منهما أسلمني لهذا المصير. هل أنا محتاج للتوضيح؟ أنا سأموت الآن بعد أن اخترت هذه الميتة، سوف أصب

على جسدي رصاصاً ذائباً وسأظل كتمثال يكشف عورة الواقع. ربما يأتي أحد في الزمن القادم لينبش سيرتي ويعرف المأساة بي. كثير من العته ..لماذا لا أقول الكارثة التي عشتها مادمت ميتاً ميتاً؟ وهذه مشكلة أخرى، فأنا أخشى على أناس مازالوا أحياء. أخشى عليهم من البطش. هل تكفي هذه الجملة؟

الليلة الثانية:

وقفت أمام تلك اللوحة، ومددت يدي. كان اللون الأحمر ينزُّ، وكم كانت مفاجأتي ضخمة! لقد كان دماً راعفاً، أصابتني الرعشة والذهول، وشعرت بفؤادي يهوي إلى الأسفل، وأنا أتلمس طراوة ذلك الدم. وقبل أن أفيق كان صوت ثقيل يتردد في جنبات الغرفة:

ـ ما الذي جاء بك؟

لم ينتظرني صاحب الصوت كي أجيب بل أحسست بيد تلامس كتفي وتهزني:

ـ سوف أتركك لتكتب ما شاهدت وإياك والتدليس.

أحسست بيد تجذب جسدي تجاه ذلك الصنم ذي الرداء الشوكي وكلمات تتردد بعنف:

ـ لقد قتلوني، سوف تجد الدليل هنا.

سمعت خطوات سريعة تغادر المكان وأطفئت الأنوار، وسمعت خرير ماء يتدفق بغزارة حتى خيل لي أن طوفاناً سيدك المدينة ..أحسست بالمياه تغمرني من كل جانب، وكلما حاولت رفع صوتي باستغاثة محمومة تحجر صوتي داخل حنجرتي فأجدف

بيدي بكل قوتي، ومن بعيد أرى المياه تغمر المدينة وتجرفها نحو البحر من غير أن يرتفع أي صوت باستغاثة، كل شيء يتحرك صوب البحر بصمت واستسلام .. وعاد الصوت ثقيلاً متوعداً:

– بلّغ عني .. سوف آتي هكذا.

والتفّت يد حول عنقي لتجذبني من وسط تلك الأمواج العاتية، وغبت عما حولي لأستيقظ في الصباح واهماً أنني كنت أحلم.. وقبل أن يستقر هذا اليقين كانت ملابسي المبللة تعكّر ذلك الاطمئنان، وبقع من المياه تجمعت في زوايا الشقة، فأيقنت أن محبساً من محابس المياه قد فتح في غفلة مني. وقبل أن أتمكن من طمأنة نفسي بالدوران على تلك المحابس كان الصوت الثقيل يجوب أرجاء المكان:

– أولم توقن بمقدمي؟ أخبر عني. أخبر أولئك الغافلين أنني سوف آتي كما رأيت..

خرجت راكضاً بينما كانت الحارة غارقة في نومها وأنوار الأزقة تجاهد ببسالة في دفع ليل هطل بكثافة.

ملاحظات على التحقيق

الزميل يوسف الغالب

تحية وبعد

هذا التحقيق لا يصلح للنشر للأسباب التالية:

١ هل تظن نفسك تكتب سيناريو أفلام الكرتون الخاصة

بالأطفال حتى تتصور أن القراء سوف يقبلون على قراءة تحقيق (لا أعرف أي وصف أطلقه عليه لكنه كما قلت أنت: تحقيق فاسد)؟

٢ هناك فجوات في التحقيق وإسهاب في المقدمة التي لا تفهم البتة ولم أقرأ في حياتي - وأنت تعرف عمق تجربتي - تحقيقاً صحافياً يبدأ بهذه الكيفية. والعارف لأدنى مبادئ الصحافة لا يبدأ تحقيقاً صحافياً بالكيفية التي بدأت بها، أو يكتب كلاماً كالذي كتبته.

٣ اللغة المستخدمة ليست لها علاقة بلغة الصحافة أو الأدب أو أي حقل من حقول المعرفة.

٤ ماذا يعني القراء من شخص غاب عن بيته في زمن من الأزمان؟ لتأتي حضرتك وتضفي عليه من القدسية والصفات المبالغ بها حدّاً يصل لأن يمكننا من وصم كاتبها بالجنون أو العته.

٥ هناك تفاوت مهول في التواريخ بين حضور النزيل ومن يتحدثون عنه.

٦ البذاءة التي لم تتورع عن ذكرها وكأنك تكتب في «اللوموند» وليس في صحيفة محلية. كان يجب عليك مراعاة القيم والمثل التي ينطلق منها مجتمعنا، فمجتمعنا المثالي لن تعكر معتقداته مثل هذه الكتابات السخيفة والمبتذلة والشوهاء.

٧ وسعيك لإشاعة خرافات وهرطقات تتنافى مع قيمنا ومبادئنا

وتتنافى أيضاً مع توجهات البلد وروح المواطنة الصادقة. لذلك، فأنا أحذرك من مغبة الانسياق خلف هذه الترهات، والاستخفاف المهين بعقلية الناس ذلك الاستخفاف الذي بدا جلياً من خلال ما تطلق عليه عملاً صحافياً خارقاً.

٨ تملقك الفاضح والذي حاولت فيه استجلاب تعاطفي معك مع معرفتك الأكيدة أن مثل هذه الجمل التي ذكرتها لن تنشر وإنما حاولت أن تمررها علي وكأنك تسخر في داخلك مني، وهذا الشعور يدل على خبثك وصدأ معدنك وأن لك نفساً رخيصة مبتذلة لا ترى أبعد من ذاتها التي تحاول دائماً تضخيمها مقابل إنقاص قدر الناس.

٩ من تظن نفسك؟ أنت مجرد مخبر صحافي لا تزال في أولى درجات سلم الصحافة، وأظنك لن تقف على أول عتباته لأنك لا تمتلك أي موهبة. أقول هذا القول لأنك كتبت في بداية التحقيق (كتب يوسف الغالب). هذه البداية لا يكتبها إلا رئيس التحرير أو نوابه أو كاتب جهبذ له عمر طويل في دروب الصحافة، أما أنت فتظل مصدراً نكرة، تفضلاً عليك يمكن كتابة اسمك على الأخبار السقيمة التي تأتي بها من خلال الهاتف أو فبركة أخبار الوكالات.

١٠ أنت لا تصلح لأن تكون صحافياً أو لأي شيء آخر. وصيتي لك أن تقدم استقالتك.

١١ صحيفتنا ملتزمة منذ أن انطلقت في ميادين الإعلام، بالابتعاد عن كل الانحرافات التي يشيعها مرضى النفوس والعقول،

ولن تجرها بمثل هذا التحقيق السخيف إلى مزالق لزجة ومشبوهة.
هذا للعلم..

ملاحظة أخيرة:
إياك ثم إياك أن تلجأ لمحاولة تمرير هذا (التخريف) عبر رئيس التحرير، ولا احتاج لأن أذكّرك أنك بمثل هذا التصرف تتعدى على صلاحيات رؤسائك.

مدير التحرير
محمد العائش
٢ - ٥ - ١٤٠١

تنويه:
لا أزال أحتفظ بهذا التحقيق من غير أن أتمكن من نشره منذ عشرين عاماً.

يوسف

الأوغاد يضحكون

يتسلل ضوء القمر عبر منفذ صغير استقر في أعلى العنبر، وحين تحدق بالظلام لا ترى إلا أجساداً مقذوفة في أحلامها اليائسة بعمق وملل.

الليل منفذ واسع للهروب من تلك الآهات التي تثقب الصدور، كان الحيشة ـ وهو أقدم سجين ـ يردد:

ـ إذا كثرت أحزانك، نم.

فأصبحت مقولته قاعدة نستتر بها من زخات أحزاننا الكثيفة، فما أن يهطل الليل حتى نتسابق إلى مخادعنا لنجترّ ذكرى قديمة أو حلماً ينز من البال باقتضاب.

منذ ليال مضت لم نعد نسعد بالنوم، فما أن نطبق عيوننا حتى

يتعالى صوت دمدمة وقرع طبول وروائح لقش محترق، وفي أحيان كثيرة رائحة شياط لذبيحة تشوى على جلبة أصوات تدمدم بهمة وأقدام تضرب الأرض بتوتر، ولم يكن أحد ليجرؤ على فتح عينيه بعد أن فقئت عين البوري بحربة انطلقت من الظلام لتفجر محاجره وتترك له حفرة غائرة وعيناً منطفئة، فيما بعد أقسم أن ثمة جن يسكنون هذا العنبر، وروى أنه رأى جماعة من الزنوج تدور حول نار ملتهبة رافعة حرابها وزمجرتها داكين الأرض بغضب نافر من سحنتهم المتشابهة. وحين رأوا عينيه المحدقة بهم أطلق أحدهم حربته باتجاهه.. وبعد أن أيقن من ذهاب ضوء عينيه أصبح لا ينام، ـ يقول بعض من تتبع أخباره أنه أدخل مستشفى المجانين، وأنه يجالس أقرانه يومياً ويحكي لهم سبب انطفاء ضوء عينه اليسرى ـ فما أن يأتي الليل حتى يصاب بهياج وسعار ويظل يقفز من مكان إلى آخر صائحاً:

ـ الجن ينتظرون نومي حتى يزهقوا روحي.

وشاع خبره في بقية العنابر وأصبح المساجين يطلقون على عنبرنا (عنبر الجن). وحين وصل الخبر إلى مأمور السجن سخر من عقولنا السقيمة ـ على حد زعمه ـ وعزل البوري من عنبرنا بعد أن أشبعه ركلاً في محاولة لمعرفة من قام بفقء عينيه، وكلما ركله أكد له تلك الواقعة التي رواها لزملائه ـ حتى ملوا من كثرة ترديدها ـ فيزداد المأمور سخطاً وتنكيلاً به، ولم يتوقف عن إيذائه إلا حين نقلت إليه عيونه أن ثمة أصواتاً تخرج ليلياً من ذلك العنبر ولا يعرف مصدرها بالتحديد! عندها أصدر أمراً لبعض حرسه بالتلصص بين المساجين خفية والقبض على العابثين الذين يقومون بإصدار تلك الجلبة ليلاً، لكن المراقبة لم تثمر شيئاً وظلت الأصوات تواصل جولتها الليلية.

في تلك الأيام أصبح الليل وحشاً ضارياً لا نستطيع دفع خوفنا منه

إلا بإغماض عيوننا والإنصات لتلك الأصوات حتى مطلع الفجر وما أن تخمد حتى نسرق قليلاً من النوم قبل أن توقظنا أحذية العسكر.

في إحدى تلك الليالي تجاسرت وفتحت عينيّ، كان العنبر غارقاً في الظلمة، فأخذت أتنقل بصري هنا وهناك من غير أن أعثر على شيء، وقبل أن أطبقهما لمحت عود ثقاب يشتعل في ركن قصي من العنبر، أخذت روحه تتمدد في كومة قش فينبعث الدخان ونار متكاسلة هبت فتية مع قرع طبل هيج سيقاناً ذابلة في ذلك أرضية العنبر.. ورأيت شرنوكه يقف منتصباً رافعاً يده بحربة ذات نصل دقيق ويدور ضارباً الأرض بقدميه بتوتر وانفعال زائدين، بينما كان صوت الطبل يتعالى على صيحاته المتهيجة فتستجيب لها صيحات حادة متوحشة أقرب للعواء تأتي من أماكن قصية أتت ملبية تلك الصيحة، تجر بغالها ومواشيها.. والتفوا حول النار المستعرة يضربون صدورهم بأياد غمست في دم نز من عجل نُحر للتو وخزقوه بحربة جرت في فمه ولم تطق أن تغيب في أحشائه طويلاً فظهرت من دبره! وحملوه ليستقر على وتدين نصبا بشكل متواز بينما كان زنجيان يمسكان بطرفي الخازوق ويقلبان العجل بمهل على نار أضرمت من وقت مبكر.

لمحت شرنوكه يرقص في دائرة يحف به رجال سود كالليل، يحتزمون بشفار ويتسلحون بأدوات بدائية وأيديهم تمسك بحراب مدببة يرفعونها بين لحظة وأخرى على رؤوسهم وإذا أنزلوها حاذوا بها صدورهم كمن يستعد للقذف مطلقين صيحات الظفر.. بينما كان شرنوكه يتراقص فتهتز كل مفاصل جسده وفق قرعات طبل تكفل بقرعه أحدهم، فكان المكلف بضرب الطبل يصدر نغمات ثقيلة حيناً وسريعة في أحيان أخرى فيستجيب لها جسد شرنوكه

بطفاً وتدفقاً ويهتز كموجة تتثنى على نفسها وينطلق نحو النار خامشاً من جمراتها وناثراً إياها فوق رؤوس المحيطين به فينكبون أسفل قامته سجداً ليقفز عالياً ضارباً الهواء بسنان حربته ويصيح محتداً:

- من سيبين جمنو لا بك من جتر خج(*)

في إحدى قفزاته تلاقت أعيننا فأشار لي بإغماض عيني، وعندما لم أستجب لإشارته رأيت زنجياً - حجري الملامح - من خلف ظهره يستعد لقذف حربته باتجاهي فاعتراني الخوف وأغمضت عينيّ على عجل وتلحفت بغطائي وأخذت أستعيذ بالله وأجاهد نفسي لتتغلب على خوفها، وكلما حاولت الانغماس في النوم تعالت صيحات أقرب للعواء ودمدمة ثقيلة رتيبة فاحت على إثرها رائحة شياط لعجل نز سمنته على نار مستعرة .. ومن بعيد، بعيد جداً تأتي أصوات متداخلة تمضغ الكلمات بلكنة غريبة وإن كانت منغمة يشقّ انسيابها صوت شرنوكه حاداً مزمجراً:

- من سيبين جمنو لابك من جتر خج

يختلط صوته حيناً بأصوات متهيجة وبثغاء أغنام وخوار ثور وربما شخير إنسان مرقت على نحره شفرة حادة. بعدها هدأت الجلبة وعاد السكون للعنبر شيئاً فشيئاً وغرق في العتمة والصمت.

في الصباح اقترب مني شرنوكه وهمس:

- إياك أن يعلم أحد بما رأيت ليلة البارحة. وحين هممت بملاحقته بالأسئلة كزّ على أسنانه:

(*) أنا خارج الزمن أيها الأوغاد.

ـ يكفي ما رأيت .. وتذكر أن ثرثرتك تقابلها حياتك.

وعندما لم أعد أستعلي عليه أصبح أكثر وداً معي.

≈

السجن يضيق حتى يصبح صدراً إضافياً يخفق بداخله القلب بتوتر، وتغدو الحياة أنفاساً رتيبة مملة، نقطعها بكلمات ميتة تسير سير سلحفاة هرمة. كان مقرراً علينا أن نقضي زمناً طويلاً داخل هذا العنبر، فقد تعددت جرائمنا، وصنفت ضمن الجرائم الخطرة والتي توجب السجن لسنوات طوال، هنا يصبح الزمن وجوه أناس تتأملها وتقرأ تفاصيل ماضٍ موغل في البؤس وغدٍ مضمحل لا يبين، تسير صوبه تلك الوجوه من غير أدنى اكتراث ويصبح الغد وجوه أولئك الذين يدخلون أو يخرجون من هذا العنبر، ويكون زمننا خصباً حين يهلّ علينا نزلاء جدد نتعرف من خلالهم إلى ما يحدث خارج هذه الزنازين التي ملت من أنفاسنا وروائحنا، ليس هذا فحسب فمع مقدمهم نحصل على الدخان وبعض الحاجيات البسيطة التي تعتبر داخل السجن كنوزاً تميز بعضنا بعضاً كفنلة أو قطعة صابون أو منشفة أو سروال، أو (كشينة). ولمقدم هؤلاء النزلاء ـ الجدد ـ فرحة تسري بيننا وتفيض من تلك الوجوه القاتمة حيث كنا نستعد لمجيئهم باحتلال الأماكن التي يتم إخلاؤها من تلك الأجساد الذابلة التي تغادرنا بالإفراج أو القصاص، ونقوم ببيع الأماكن الشاغرة للقادمين، وبالتالي يتيسر لنا بعض المال نستطيع من خلاله أن ندبر بعض الأمور التي نحتاج إليها. فبالرغم من اشتغال معظمنا بأعمال مختلفة في داخل السجن، إلا أننا نضيع ما نحصل عليه وراء إشباع نزوات

حمقاء سرعان ما تتلاشى في عتمة الليل خلف ظهر امتهن الانبطاح وتحمل أيادينا المثبتة على كتفيه بشبق.

شيء قذر أن تمضي وقتك تطارح ذاتك! بعض النزلاء الذين أدمنوا العودة وجدوا تجارة رابحة تدر عليهم المال اليسير الذي بين أيدينا، وقد بدأت هذه التجارة بجلب صورة نبيلة عبيد، كان إيجارها لليلة واحدة خمسة ريالات والساعة بريال واحد، ولكون الأنوار تغلق مبكراً فقد كان البائع يستعين بجلب شموع يتم تهريبها بإلصاقها بأعلى حنائه ـ بعد إذابتها ـ، ولكي تستأجر الصورة عليك أن تستأجر معها قطعة شمع وتتدبر كيف تشعلها بعد أن يغلق الحرس أنوار العنبر،وبعد دخول صورة نبيلة أصبح الداخلون أكثر تفنناً في جلب الصور الأكثر إثارة وإشباعاً للنهم الذي نعيشه.

أصبح العنبر شبقاً لدرجة أننا أوكلنا أحدنا بمقابلة المأمور نرجوه أن يزيد نسبة الكافور في ما نأكله ونشربه، إلا أن شبقنا تجاوز الحدود ولم تفلح معه زيادة الكافور وقد امتهن بعضنا الانبطاح ليحصد المال بهذه المهنة القذرة.

لم يكن مقدراً لمجموعة كبيرة أن تغادر هذا العنبر في وقت مبكر، لذلك كان هاجسنا كيف يمكن لنا أن نقضي أيامنا من غير أن نتطلع إلى الغد، وإن فعلنا فعلينا أن نمضغ كثيراً من الأحلام الصغيرة والكبيرة في انتظار أن يأتي ذلك اليوم البعيد.

كان يجاورني أحد الأفارقة ـ ويدعى شرنوكه ـ والذي كان مشغولاً بالتخطيط على أرضية العنبر ورسم أشكال بديعة، ولم

أكتشف مقدرته الفذة في الرسم إلا في إحدى الأمسيات حين مد يده بورقة باتجاهي فذهلت لتلك الرسمة التي جسد فيها هيئتي. ولصمته الطويل كنت أظن انه أصم أو أنه لا يفقه العربية لكنني اكتشفت أنه يتمتع بلسان ذرب وروح حلوة متعطشة للحياة. وقد عرفت فيما بعد أنه اقتيد إلى السجن بتهمة مزاولة السحر.

وحين علم زملاء العنبر تهمته أخذوا يتضاحكون ويلمزونه:
ـ لو كان ساحراً لما استطاع أحد أن يقتاده إلى هذا المكان المعتم..

كان يسمع أحاديثهم ونكاتهم بشيء من الثقة تاركاً ابتسامته تسيل على شفتيه الغليظتين وعينيه الصغيرتين تتعمقان في تلك الوجوه المكدودة.

في إحدى الليالي تسامرنا. قال إنه قدم من خلف جبال تكوتا حيث السحر والجمال من قرية ما زالت تقبع خلف التاريخ، وفيها أناس لا يعرفون سوى الغابات وأغاني الأمطار ويقدسون الروح المحلقة في الفضاء.

ذات مساء وبينما دخلنا في نومنا سمعت هنهنة وبكاء مكتوماً ـ كان هذا قبل فقدان البوري لعينه اليسرى ـ تقلبت فرأيت شرنوكه يجلس القرفصاء ضاماً يده إلى صدره، اقتربت منه:
ـ ما الذي يبكيك؟

وكمن أمسك به وهو يسرق انتفض وسارع إلى مسح دمع عينيه، وبشيء من الغلظة تمتم:

ـ هذا شأن لا يعنيك.

فما زلت أتودد إليه حتى انبث شوقه دفقاً عبر كلمات ممتلئة حنيناً:
ـ اشتقت لقريتي وتلك الوجوه السمراء المزروعة في الأرض.

وضعت يدي على ظهره مهدهداً:
ـ عليك أن تنسى لبعض الوقت حتى تنهي مدتك.

ضغط على زنده بقوة فنفرت عروقه بتوتر وكز على أسنانه بغيظ:
ـ إن دمي يتلوث خلال سنة، ولو بقيت المدة المقررة هنا فسأموت.

وانهار واعتلى نحيبه لينهض بعض زملائنا محاولين تهدئته، مسح مخاطه بفانلته المتسخة وتطلع إلينا متصفحاً وجوهنا وقال بصوت واثق:
ـ سأخرجكم من هنا جميعاً.

فانبثقت ضحكاتنا، لكنه لم يمهلنا وقتا طويلاً:

ـ أريد أن تشتركوا لي هذا الجدار من أوله الى آخره، وبعدها سنهرب جميعاً. فازداد ضحكنا، ولكنه كان أكثر احتداداً وتصميماً، ولم يقابل إلا بالاستهزاء، فسكت على مضض، وفاتحني بعد عدة أيام بأن أقدم له يد العون في امتلاك هذا الحائط، فتقبلت كلامه بشيء من العطف:

- أنت تعلم أن لكل سجين مساحة معينة في هذا العنبر ولن يتنازل لك أحد عن مساحته إلا بمقابل، فصمت وعاد إلى مكانه سارحاً، وفي اليوم التالي استطاع شراء كراسة عريضة بواسطة أحد العسكر المتعاطفين معه وامتهن رسم السجناء، كان يبيع الرسمة بريالين ولم يمض عليه وقت طويل حتى أصبح يمتلك بعض المال دفعه لأقدم سجين في العنبر وحصل على مساحة ثلاثة أمتار من الحائط. كان ذلك السجين قد ورث مترين من زميلين تم تنفيذ القصاص بهما وآل إليه المتر المتبقي كهبة منحها إياه سجين أفرج عنه وأقسم أن لا يعود للسجن مهما كان الأمر. وبعد أن تملك تلك الأمتار الثلاثة بدأ يتوسع في الحصول على بقية الحائط.

الآن أذكر أن دمدمة الليل التي تحدث في عنبرنا بدأت تظهر بعد أن استطاع امتلاك أول ثلاثة أمتار من جدار العنبر.

صباح تلك الليلة التي رأيته فيها محفوفاً بالزنوج، جاءني وحذرني من مغبة أن يزلّ لساني بالإفصاح عما رأيت، وخوفاً من تحذيره فقد التزمت الصمت ولم أبح لزملائي بشيء مما حدث.

ذات صباح استيقظنا فوجدناه يمسك بعيدان صغيرة غريبة الشكل شذبت على هيئة أقلام قال إنه جلبها معه من أدغال أفريقيا من شجرة (موبي ادبا وباب) أعرق أشجار أفريقيا والتي تقدسها مجموعة من القبائل القاطنة في أدغال الغابات الاستوائية. تلك الشجرة التي قذف بها نهر الخلود فبقيت مثمرة منذ ملايين السنين ومن أكل ثمرها أو أصاب جزءاً منها امتلك سر الخلود.

كان يتوقع أن تتدافع لمسّ تلك العيدان وقد أبدى الحذر بجمعها في حجره، وعندما رأى مؤخراتنا لا تتزحزح من مواقعها أعاد نثر عيدانه وتشذيبها وأخذ يغمس أسنتها في محلول لونه كلون الدم كان يحمله بين ملابسه، ونهض في مواجهة ذلك الحائط وشرع في رسم هيكل لسفينة كبيرة.

التف النزلاء حوله مبهورين بإتقانه لرسمه العجيب ـ والغريب أن هذه الرسمة كانت تختفي من على الحائط عند دخول دورية التفتيش (وهذا ليس كذباً فقد كانت تشف ويبهت لونها فلا ترى) ـ وظل لوقت ليس بالقصير يرسم سفينته ويدخل عليها التعديلات المتتالية حتى إذا أتم رسمه صاح:

ـ الليلة سوف أرحل فمن يصحبني؟

فتضاحك الجميع، ليجدوا صوته الثاقب يعطل قهقهاتهم وينخر مسامعهم كأداة ثقب مدربة على الجريان في الصخور الصلدة:

ـ كفوا عن حماقاتكم ومن يُرد مرافقتي فليتحرك.

تخشب معظمنا، ومع صرخته الثانية كنا نقف بتخاذل حائرين ونحن نتطلع إلى هيئته التي تغيرت وغدت أقرب لهيئة نمر ضار يهمّ بالانقضاض على من يحاول التحرش به فانقدنا لنظراته باستسلام، ولكي لا يفقد رئيس العنبر هيبته فقد اعتبرها لعبة يمكن أن تدخل السرور إلى قلوبنا، هذه الجملة التي تعلقت بها كرامتنا المهدورة أنقذت كبرياءنا أمام بعضنا البعض. وسرعان ما تحولت إلى لعبة حقاً ليدخلها نزلاء العنبر كترويح عن أنفسهم ولتخرجهم من مللهم لبعض الوقت.

قام شرنوكه فوزعنا على هيكل السفينة المرسوم وأمرنا بالوقوف

أمام المكان المخصص لكل واحد منا، وطال وقوفنا فتململ الكثيرون من وقفتهم وانسحبت مجموعة كبيرة بعد أن أظهر شرنوكه اللين مع من تخاذل في وقفته، حيث كان من المقرر أن نقف من الأصيل الى السَحَر، وقد استقر شرنوكه في مقدمة السفينة وهو يتطلع إلينا بثقة وتحريض على الصبر، وكلما تقاعست قامتنا صاح:

– رحلتنا ليست في حاجة للمتخاذلين، ومن لم يجد في نفسه الصبر فليغادر سفينتنا.

كنا نتغامز، ونتبادل الابتسام بلا مواربة من جملته تلك التي كان يرددها بين الحين والآخر، وتجرأ الهمني بالإفصاح عن سخريته:

– ركبت في راس العبد بفكرنا راكبين سفينة بحق وحقيق، يا جماعة فكونا من تكرته، يلعن أبوه على أبو السفينة.

فالتفت إليه بعين حارة، ونفس حامضة، ودمدم بلكنة مليئة بالشنشنة جعلت من رآها يكتم ضحكته لا إرادياً، وإن بقينا نلعن استجابتنا له في داخلنا ونلوم بعضنا على هذا العبث الذي نحن فيه. وبعد مضي ساعة تراخت مفاصل الخشبة وشعر بالإرهاق فصاح:

– يا جماعة والله لم أقف في صلاة مثل كل هذا الوقت، ولن أقف لأحد.

وتحرك من مكانه وقذف بجسده على فراشه مبدياً الإعياء، فصاح به شرنوكه:

ـ ستندم.

فرد عليه بضيق:

ـ لو ندمت لا تدخلني الجنة.

وبعده انسحب الهمني، فرئيس العنبر ثم تناسلت مجموعة كبيرة، ولم يبق في مكانه إلا خمسة أشخاص كانوا يحلمون بالهروب من حد السيف.

ومع الغروب دخل إلى الحمام ودلق على رأسه الماء واغتسل جيداً ولبس ملابسه الشعبية وجلس منشرحاً بعد أن أمر من بقي معه بالذهاب للاغتسال. وظلت ابتسامته تنير وجهه وهو يحرض من انسحب على انتهاز الفرصة، لكن أحداً منا لم يكترث به، حتى أنا الذي استهوتني اللعبة منذ البدء تراجعت وسخرت مع الساخرين، فقال بحزم:

ـ ستندمون في الصباح.

وعندما استوثق من عدم إجابتنا لما يدعو إليه، جمع من وافقه ووزعهم من جديد على هيكل السفينة المرسوم على الحائط وأمرهم بالصمت حتى يحين موعد الإبحار، فجلسوا في أماكنهم صامتين بينما تقدم هو لمقدمة السفينة وأخذ يتمتم بوقار ومثابرة. لم تخرجه سخريتنا عن تمتماته وخشوعه، كانوا كلهم كالخشب المسندة إلى الحائط، وعبثاً ذهب تنكيتنا وضحكنا، وما خرجوا عن صمتهم، فتركناهم على هيئتهم وانقلبنا لأحوالنا.

أخذ الليل يعبرنا ببطء ونحن نزاول ليلنا كالمعتاد في اللعب

والأحاديث، والالتفات الى أولئك المتخشبين فى أماكنهم بصمت والتندر عليهم، وعندما أطفئت الأنوار تمنا ونحن نتضاحك على ركاب السفينة، ومع منتصف الليل سمعنا هديراً عالياً ورذاذ ماء مالح يبلل أجسادنا وصفارة قوية تنبعث في هجعة الليل وثمة سفينة تشق العتمة في موج متلاطم.

١٤١٦

كتبت خلال عام كامل ١٤١٥

ماذا قال القميري؟

الشوارع مملوءة بالناس، والكل معلق بصره في السماء، والدهشة تنتزه على الوجوه بطلاقة..كان حدثاً مثيراً لا يمكن تصديقه، ولولا حدوثه أمام أعيننا لظننا أنه إحدى التقليعات الإعلانية التي ابتلينا بها مؤخراً، وعلى أبعد احتمال أن يظن الرائي أن بالوناً كبيراً أطلق في الجو لتلهية أبنائنا، خصوصاً أن إسماعيل أبو حمد قد توعد بإطلاق طائرة كبيرة تعيد له زبائنه الذين فقدهم في الألعاب المستحدثة، لكن هذا الاحتمال مات فجأة حين تراكض علية القوم، وهم يسكبون اللوم على العمدة الذي فقد شاله الحلبي أثناء الركض، وبقي بفردة حذاء واحدة يزجرهم عن مواصلة تقريعه:

- قدر الله وما شاء فعل.

خرجنا جميعاً نركض في الشوارع والأزقة، كانت ملأى بالناس،

بدأ الركض من حيثُنا ثم تواصلت الأقدام وتوالدت الأزقة والشوارع والميادين. أناس لو قدر لراء من عل رؤيتهم لجزم أن كارثة عظيمة حلّت بمدينتنا، حيث كان البشر يركضون إلى خارجها في اتجاهات مختلفة كخلايا النمل، ولم يكن ركضنا منتظماً فطغت العشوائية وتلاقفتنا الشوارع وتداخلت أصواتنا كل يوصي الآخر بالركض في اتجاه مختلف.

وانبرى كثير منا للتشهد، والاستغفار بعد أن صاح أحد الشيوخ:

ـ والله إنها القيامة ولو لم تكن فهي فاتحة لها.

وسجد ولم ينهض، متمنياً أن يقبض على تلك الحالة، ولم تخرجه من سجوده تلك الأقدام المتراكضة والتي كان من الممكن أن تهرسه من غير أن تنتبه لسجوده.

وتخلت النساء عن أي ساتر يستر فتنتهن وقدودهن المشوقة وخرجن فزعات حائمات الأبصار والأفئدة، وفي حالتهن تلك لم يغرين الرجال بالنظر إليهن، أو استراق النظر لمخابئهن العميقة حيث كان كل واحد مشغولاً بهول ما يرى، فقد ظلت العيون معلقة والأفواه تسيل بالاستغفار، ولم يكن أحد يملك وسيلة لإيقاف تلك الفوضى التي دبت في الحي، وقد استجابت النساء في بادئ الأمر لفضول أطفالهن فمددن أعناقهن من الأبواب والنوافذ وعندما هالهن المشهد تراكضن معهم، لكن الأطفال استشعروا الخوف فأسرفوا في البكاء لتبادلهم أمهاتهم البكاء بعويل فاجع. كان الجميع في حالة اندهاش، وانسكبت كثير من المقولات التي لم تجد من ينصت لها ساعتئذ، وكان أكثرها ترديداً مقولة الحسيني:

ـ والله هذه دعوة أبو عبدالله.

كنا جميعاً نركض ولا نعرف بالتحديد إلى أين، فقط كانت عيوننا

معلقة في السماء ونحن نتابع علوه وكأنه طائرة ورقية انقطع خيطها فأخذت تبتعد وتتراقص في السماء وتركض للمدى البعيد.

≈

نافذة أُغلقت درفتاها، فبقيت شقوقها تفضح ما بداخلها، ألصق الصبية عيونهم بتلك الشقوق، وتدافعوا كل منهم يزجر الآخر ليخلي مكانه مفسحاً المجال للآخرين بإلقاء نظرة خاطفة إلى داخل تلك الغرفة ذات الإضاءة الشاحبة. كانت تلك المماحكات تحدث بصمت بينما العيون تتبادل النظرات بغضب، والأيدي تعبّر عما يجيش بالصدور، مكتفين بجذب الفنلات، أو التخبيط على ظهور الغارقين في تأمل ذلك الجسد المنتفخ.

ولم يكن ذلك الصمت الغارق بين الصبية إلا وليد خوف من أن تسمعهم زوجة القميري فتخرج لطاردتهم وإلقاء الحجارة على رؤوسهم أو إلحاق الشتائم بهم وبمن ولدهم على الأرض.

كان المنظر مغرياً ببقاء العين ملتصقة بشقوق الدرفتين الخشبيتين والتي انطبقت منذ عشرة أيام.

تم اكتشاف تلك الحالة العجيبة بالصدفة المحضة:

لم يكن القميري يترك صبياً يلعب بجوار بيته إلا وعلقه من أذنيه، وأشبعه ضرباً، لذلك تعود الصبية على الابتعاد في لعبهم عن بيته، ولم يشجعهم على الاقتراب إلا غياب القميري المتقطع حيث كان يغيب لثلاثة أو أربعة أيام ويعود من جديد صاخباً عاوياً ككلب عقور.

ولم يكن أهل الحي يعرفون سبباً لهذه الغيبات المفاجئة والتي كان يعود بعدها ممتلئ الوجه وقد بدت عليه السمنة ونز دهن وجنتيه تاركاً وجهه كمقلاة دهنت أرضيتها بشحم مكثف، مما جعل أحد الناقمين عليه يرد على تعجب عمدة الحي حين أبدى دهشة معلقة:

ـ والله القميري سمن.

فرد عليه معقباً:

ـ الزبيب يا عمدة.

فزجره العمدة مستغفراً:

ـ يا رجل خاف الله.

لم يكن أحد يعرف أين يختفي في تلك الأيام التي يغيب فيها لكنهم ألفوا هذا الغياب المتقطع، وأطلعوا في صباحهم عن ترديد:

ـ ماذا قال القميري اليوم؟

مع هذا الغياب تجاسر الصبية ومدوا رقعة لعبهم حتى توسط بيت القميرى ملعبهم، كانوا يعلمون علم اليقين أن كرتهم إذا (تسطحت) ببيت القميرى لن تعود إلا أشلاء ممزقة، واتفقوا أن لا تعتلي الكرة سور الجدار بأي حال من الأحوال.

اليوم ارتقت الكرة سور بيت القميري واستقرت فوق سطحه، فتراكضوا هرباً، وظلوا ينتظرون كرتهم أن تقذف ممزقة، أو أن يخرج القميري حاملاً عصاه ليطاردهم بين الأزقة الملتوية كعادته صائحا بهم:

ـ يا أولاد الزنا ..ألا تجدون مكاناً للعب غير جوار بيتي؟

وعندما تباطأت تلك الشتيمة في الخروج، وظل باب البيت موصداً، ولم يقذف بالكرة أو يخرج إليهم، أيقنوا بغيابه، واقترعوا أيهم يصعد لجلبها. كانت القرعة من نصيب ابن السقا، فتجاسر بعد أن قرأ المعوذات وسمع كمّاً هائلاً من تحفيزات أقرانه، ارتقى الجدار مستعيناً بأسياخ نافذة بيت القميري النافرة، وفي ارتقائه تخشب ولم يكمل الصعود، فكان أقرانه يحضونه على الصعود بتحفيز مضاعف، تخالطه شتائم بذيئة:

ـ اصعد..

وتطاير سبابهم وهم يلمحونه ممسكاً بأسياخ النافذة ويتطلع من شقوقها إلى داخل الغرفة. كان غائباً عن غضبهم بالتحديق والذهول وقد جحظت عيناه وفزّ الهلع منهما فسقط مفزوعاً وولى هارباً ليتبعه أقرانه راكضين، حتى إذا هدأ روعه أخبرهم بما شاهد، فعادوا وغرسوا عيونهم عبر شقوق الدرفتين الخشبيتين التي انطبقت على بعضها منذ عشرة أيام مضت.

≈

القميري شخصية عجيبة وطريفة تجر خلفها صفات ملوثة، يصفه أهل الحي بصفات ذميمة كالخسة والبذاءة وقلة المروءة، والصفاقة، والدناءة. ورغم صفاته الحقيرة المتعددة التي يتجول بها بين الناس، كان محط اهتمام الحي، فالجميع يتناقل مقولاته، ويروجونها وهم يلعنونه ضاحكين:

ـ لعنك الله يا قميري، من أين لك كل هذه البذاءة؟

لم يكن له صديق وإن أبدى الجميع حرصهم على صداقته والترحيب به خوفاً من لسانه المتغلغل في سيَر الناس كخنجر قصاب يعرف كيف يجري بين العصب والعظم، كان لا يتورع عن قول ما يشاء وفي أي مكان بوجه غُسل بمرق بارد فظل مهاباً ممن يخشى سلاطته، وهادنه من كان يخشى على سيرته أن تصيبها دناسة لسانه. وبمقدرة فذة استطاع أن يتعمق في حياة من حوله ويعرف الخبايا الدفينة ويثيرها في الشجارات الصغيرة والكبيرة، وقد أقسم أحد المسنين أنه من نسل إبليس وقد غمّ على من حوله أصله لأنه يسير في ملابس البشر.

ولم يكن يمضي يوم إلا وأحدث شجاراً أو علق فضيحة بهامة أحد أبناء الحي. ولكثرة شجاره وسبابه، أصبح من عادة أهل الحي أن يتساءلوا كل صباح:

ـ ماذا قال القميري؟

أو:

ـ ماذا فعل القميري؟

ولشدة بذاءته فقد وصفه المبروكي:

ـ لسانه نقع في بيارة.

ولم تذهب هذه المقولة أدراج الرياح، فقد علم بها القميري، وكال له من السباب ما جعله يتمنى لو أن الأرض خسفت به قبل أن يسمع تلك الشتائم التي نالت عرضه وجعلته مضغة على ألسنة الحي.

لم يسلم من لسان القميري إلا العم عبده بائع الفول، فما أن يظهر في مجلس أو على قارعة طريق حتى يختفي القميري من أمامه، صامتاً متصمحاً به بلسان ذرب أقرب للتزلف والمهادنة، وإن بقي في مكانه بش وهش في وجهه واستفتحه مهللاً ومرحباً:

ـ هلا بالعم عبده نور الحي وبركته،

ويبدأ بإطلاق الأيمان المشددة:

ـ والله لو أن الأرض بها اثنان من أمثالك لسقينا بالمطر يومياً.

فيرد عليه بجفوة:

ـ ولو أن بها اثنين من أمثالك لمطرنا بالحجارة كل دقيقة.

فينكمش مبقياً على أسارير وجهه متفتحة.

ولم يكن أحد يعرف السر الذي يجعل مفاصل القميري ترتعد عند رؤية عبده الفوال.

وفي إحدى الجلسات سئل العم عبده عن السبب فابتسم واكتفى بمقولته التي أصبحت مثلاً فيما بعد:

ـ القميري مثل الزنبرك، إن رفعت رجلك من عليه طار في وجهك.

كان طارئاً في كل شيء، ولا أحد يعرف بالتحديد من أين جاء، وإن كان البعض يصدق مقولة عبده الفوال الذي كان يعامله بدونية

منذ أن قطن حارتنا ويقول عنه إنه من تلك السلالات الحقيرة التي تعيش على الهامش وتنتظر أي فرصة للتسلق وادعاء أصالة المعدن، وكان دائماً ما يوصينا:

ـ القميري مثل الزنبرك إن رفعت رجلك من عليه طار في وجهك.

ولم يتيقن أهل الحارة من تلك المقولة إلا بعد فوات الأوان، فقد نفر في وجوه الجميع ولم يعد أحد قادراً على التعرض لزفارة لسانه أو صد مكائده الخفية.

وقد دأب على الظهور في كل المجالس، يشتم ويبصق ويتشاجر، كان عجيباً في كل تصرفاته فهو قادر على منافحة الجميع إن أراد، ولا يتورع عن قول أي شيء، فاكتسب عداوة الكثيرين وإن لم يظهر تلك العداوة إلا القلة.

ومع غيابه انشرحت قلوب بعض من يهاب لسانه، وإن تحور السؤال عما قال إلى السؤال:

ـ أين اختفى القميري؟

≈

أسرّت زوجة القميري حديثاً لجارتها، فأفشت به وسرى في الأفواه كالحلوى المستطعمة، كان الرجال في مجالسهم يتضاحكون وقد أبدوا كثيراً من الانشراح للزوائد التي صاحبت الخبر.

قالت تلك الجارة:

رأى القميري في المنام أنه يحلق في السماء كعصفور، وكلما أراد أن يهبط إلى الأرض سمع منادياً يهتف به:
ـ مكانك هنا.

وأوّل حلمه لزوجته بأنه بشارة لارتفاع قدره، لكنه أبدى تشاؤماً في الليلة التالية حين رأى الديدان تمضغ أطرافه ولا تبقي له إلا على جناحين مهيضين، وأصبح لا يستيقظ من نومه عله يرى تفسيراً واضحاً لحلمه الأول، كان ينام لثلاث ليال، وإذا استيقظ عاث في الحي سباباً وشجاراً.

أما الزوائد التي لحقت بالخبر فهي كثيرة، وكلها تسخر من سقم عقل القميري، أيسرها أنه سكير لا يفيق وأفحشها أنه لم يعد قادراً على إتيان دجاجة فيهرب إلى النوم خشية افتضاح أمره مع امرأة غدت توسعه لوماً وتهدده بتعليق فحولته الرخوة على مسامع أهل الحي.

ويرسمون مشهداً خلفياً لهذا العجز قائلين: مصيبته جاءت من دعوة أطلقها عليه الشيخ أبو عبدالله، حين سخر من تلاوته على الملأ، فرفع الشيخ المتضرر يده الى السماء داعياً: اللهم أمت أوصاله حتى لا يسير لمفسدة، أو أسقط عليه كسفاً من ليل لا يفيق منه.

ويقسم الكثيرون أن ليله يطول لعشر ليال.

≈

ترك الصبية ملعبهم وكرتهم المعلقة وعادوا لذويهم، يحملون الخبر.

قال عبدالله اليوسفي (وهو صبي لم يتجاوز الرابعة عشر من عمره):
- رأيت القميري من خلال شقوق نافذته ينتفخ ك(لستك) محبب، يورم من جهة ويضمر من جهة.

وقال عمر يحيى (١٢ عاماً):
- رأيت بطنه كالقبة كلما ضغط عليها سال الورم في أطرافه.

وقال خالد البكر (١٣ عاماً):
- كنت أحس أنه على وشك أن ينفجر في وجهي.

وقال صالح الجعفري (١٢ عاماً):
- كنت أظن أن القميري أمسك بكرتنا ونفخها على هذه الهيئة، ولم أكن لأعرف أنه هو إلا حين سمعت ذلك من أصدقائي.

وقال حسن العيسي (١٥ عاماً):
- كانت سمنته كحفرة تشفط كل أطرافه فلم يبق منه إلا الرأس الذي استعصى على الشفط.

وقال جمال الوردي (١٤ عاماً):
- لا أستطيع أن أنام فهو كالقنبلة سينفجر في أي حين.

استمع الأهالي لحكايات أبنائهم بشيء من الاستخفاف، لكنهم حين وقفوا على رقدة القميري لم يستطيعوا النوم خشية أن

ينفجر فجأة، وكان كثير من جيرانه يتوقعون ذلك فوضعوا أصابعهم في آذانهم وتحفزوا لاستقبال انفجار مدوٍّ، على أن يستبدلوا وضع أصابعهم على أنوفهم اتقاء نتن سيلتصق بالحارة لزمن طويل.

≈

مضى الليل بترقب وتوجس، كان معظم رجالات الحارة يقفون أمام جسد القميري وعلى وجوههم علامات الفزع، فلم يكن بمقدورهم عمل شيء سوى انتظار الخاتمة التي لا يعرفون إلى أي حد يمكن أن تكون، ولم تركض الشماتة في بالهم، بل نسوا كل شيء وتعلقت على أهدابهم شفافية دمع كحبات لؤلؤ تزين محاجرهم، وتشجرت الدعوات من أفواههم كأغصان اللبلاب.

في الأيام الأولى من محنة القميري سالت شماتة مرة من أفواه بعض المتأذين من (زفارة) لسانه لكنهم سرعان ما تناسوا كل رداءته وجلسوا أمام جسده ممتلئين إشفاقاً وحسرة لما آل إليه،كان يراودهم بعض الأمل في أن يقوم طبيب المستشفى العام بعمل شيء يوقف ذلك الانتفاخ المريع، والتخفيف عنه، لكن الطبيب مكث معه بعض الوقت وأعلن عجزه حيال حالته الغريبة والمدهشة، وإن أبدى اهتماماً به من منطلق علمي لا من أجل إنقاذ حياته، وقد تطوع بالمكوث معه لليلتين متتاليتين كان خلالها يرصد التغيرات الملاحقة لجسد القميري ويقرأ في كتب جلبها معه لتساعده على فهم طبيعة تلك الحالة التي تحدث لأول مرة كما كان يؤكد لرجالات الحارة الذين أخذوا يتوسلون إليه عمل أي شيء يساعد في إنقاذ حياة القميري فكان في كل

مرة يقسم أنه لا يملك من العلم شيئاً يفيد صاحبهم، وفي الليلة الثالثة خرج ولم يعد.

ولم يأسفوا على رحيله فقد تبادر إلى نفوسهم الشك في معرفته حتى أن أبا إبراهيم المنجد أقسم على ذلك:

ـ هذا الطبيب لا يقدر على علاج بقرة بل كل أطباء المستشفى العام لا يعرفون سوى توزيع الموت.

وأعاد قسمه مرة أخرى مدللاً على جهل الأطباء:

ـ ألا ترون كل من دخل للمستشفى لا يعود للحياة، وإن عاد،عاد بعاهة سرعان ما تذهب به للقبر؟ فلا تأسفوا على رحيله، وسوف أتدبر الأمر مع العطارين فهم أكثر دراية بمثل هذه الحالات.

وأسف على تجاهل رأيه حين تبرع العماري بإحضار حكيم هندي، ساهم في شفاء حالات ورم عديدة كما زعم الجمالي. وقد وقف الحكيم الهندي على جسد القميري وأخذ يهز رأسه، وتمتم ببعض الكلمات غير المفهومة وهو يضع يديه على مفرق رأسه وخرج ذارفاً تمتماته من غير أن يرد على أسئلتهم المتلاحقة. هذا الموقف قوّى من حجة أبي إبراهيم المنجد الذي قفز عالياً كمن ظفر بغنيمة:

ـ ألم أقل لكم إن هؤلاء الأطباء أشبه بالقصابين الذين توكل إليهم مهمة إنعاش مزارع يابسة!!.

وإزاء عجز الحكماء، لجأوا إلى المداوين بالأعشاب مستعينين بأبي إبراهيم المنجد، وقد ادعى بعضهم أن سحراً اختلط بأمعائه ولا حل لمعضلته إلا بسقيه دم شاة حبلى، وقد صبوا في فمه المزموم

قرباً من دماء شاة حبلى تبرع بها عدنان الصيرفي، تلك الدماء لم تعبر بلعومه المحشور ما بين ترقوته وانتفاخ مؤخرة رأسه، فكان الدم يسيل من شدقيه معرضاً أغطية أسرته للتلف، وإذا عبر جدران بلعومه نفثه كحوت طفا على سطح بحر هادئ فيملأ الجدران والوجوه المحيطة به دماً مخلوطاً بمخاط معقود كحبيبات مطاطية أصابها الحرق.. واستجابوا لصراخ العمدة الساخط والمتكرر في آن:

– كفّوا عن هذه المحاولات العقيمة وابحثوا عن وسيلة أخرى تنجي الرجل مما هو فيه.

وقد كفّوا عن تلك المهزلة وحملوا آنية الدم بعيداً وأخذوا يفكرون في حل آخر يوقف هذا الورم المتنامي، وعندما عجزوا عن الإتيان بحل شافٍ جلسوا أمامه حيارى يقلبون خبراتهم ويستجدون النصح.

ولم يعد أمام أهل الحارة سوى انتظار النهاية المحتومة، وقد استبطأوا نهايته، فقد أبدى بعضهم تذمره من هذه الحالة وتمنوا موته ليريحهم مما هم فيه مخبئين هذه الأمنية تحت القول: إن موته راحة له. وأصبحت خشيتهم أن ينفجر فجأة ولا يعرفوا كيف يلمون أشلاءه المتناثرة ساعة التكفين، فقد استحال إلى بالون كبير وغاصت أطرافه في تلك السمنة المتنامية والتي التهمت كل أطرافه وأحالتها إلى زوائد منتفخة مشدودة توشك على الانفجار. كان آخر طرف تمدد رأسه، فقد أخذ في الانتفاخ ملتهماً أذنيه وفمه وعينيه وغدا الرأس كبالون صغير ألصق ببالون كبير، وفقد السيطرة على عينيه اللتين جحظتا وباتتا تثيران الرعب ببروزهما وتنافرهما الحاد، وتشقق فمه معرياً حنكه ذا الأسنان الصناعية وقد ضمر لسانه حتى غدا ككحبة

الفستق المعطوبة، وبدأ جسده يرتفع من على السرير رويداً رويداً ويعلو، فصاح أبو ذنب:

ـ اربطوه قبل أن يصدم بطنه بالسقف (فينبث).

سخروا من هذا الاقتراح في البدء لكنه تحول إلى مهمة شاقة حين تمدد الانتفاخ ليلتهم حيزاً إضافياً من الغرفة، كانت أطرافه مشدودة كبالون نفخ أكثر من الحد المسموح به فلم تمكنهم تلك الأطراف من ربطه أو ملامستها، وفكروا في إخراجه من الغرفة لكن جسده زاد تمدداً وأصبح من المستحيل إخراجه من غير أن يحتك بدفتي الباب وينفجر، وإزاء هذا، اقترح عمدة الحي إزالة سقف الغرفة لكن هذا الاقتراح لم يجد التأييد إلا حين أخذ جسده ينتفخ ويتمدد فضاقت الغرفة وانسلّ منها المتواجدون الواحد إثر الآخر حتى لم يعد بمقدور شخص البقاء معه في الغرفة، عندها أصبح اقتراح العمدة ذا جدوى، فأرسلوا في طلب عيسى البنا الذي نهض بالمهمة بعد أن أقام عليه متراساً يقيه تساقط الحجارة أو الأخشاب الناتجة من إزالة السقف، استغرق نصب المتراس يومين متتالين وبعد أن قشع السقف تماماً أزالوا تلك السقالة وربطوه بحبال لُفّت بقطن وصعد أربعة آخرون لاستلامه من السطح، وأثناء تسلمه انفرط الحبل الذي كان ممسكاً به فحلق جسده في الفضاء وأخذ يتراقص ويبتعد كطائرة ورق انقطع خيطها فأخذت تتراقص وتبتعد صوب المدى البعيد.

نبت القاع

منذ أربع سنوات لم يغير جلسته، يظل في مواجهة البحر يحدق في الأفق بترقب وصبر نافذين، يجلس جامداً كقارب ألقي به على شط هذا البحر ليستقبل الموج والطحالب وأخبار الموانئ الموحشة.

من بعيد تلمحه كصخرة قدت على هيئة إنسان. تكوّر وبقي رأسه معلقاً في البعيد. ومع الغروب تكتشف أن تلك الصخرة ما هي إلا شخص رضي أن يسمر نفسه يومياً بهذه الناحية المقفرة من شاطئ المدينة، تعبره الريح ورذاذ البحر وأصوات النوارس المحلقة على مقربة من رائحتها.

ومن هناك، من المدى تبزغ أمواج وأشرعة وقوارب، وصيادون وأسماك، وتسقط الشمس في مداها، ولا شيء يأتي مما يموج به البال.

يخرج من بيته مع القيلولة وثمة دعوات تسكبها امرأة مسنة خلف ممشاه. ففي مثل هذا الوقت تقل الأقدام المتجهة صوب البحر، فيغتنم خلو المكان من الصيادين والباعة ويتسلل بمحاذاة البحر باتجاه الشمال ماداً خطوات عجلة عابراً قوارب الصيادين المتناثرة على مقربة من ألسنة الأمواج الرخوة وثمة أمل يتقطر بخاطره فيخضر له الفؤاد. يخالس المارة النظرات السريعة ويمرق بسرعة وارتياب، وإذا رأى شخصاً قادماً في طريقه تلعثمت خطواته ووقف كمن يريد جمع أصداف البحر النائمة على امتداد الساحل، ويسلك الطرق البعيدة عن ممشى المارة حتى إذا أصبح في منأى من تلك العيون الضيقة والوجوه السمراء، أخرج كيس قمح صغيراً من جيبه وأخذ ينثر حبيباته للطيور التي تملأ تلك الناحية، ولم يكن ليلتفت خلفه مهما كان الأمر، ولا يصل إلى مكانه هذا إلا مع الأصيل حيث تتجمع طيور النوارس فيجاورها صامتاً بينما عيناه تركضان في الأفق بترقب وصبر مملين.

وحين يلمح الشمس تنتحر انتحارها اليومي وتقبر قرصها في المدى، ينفض مؤخرته ويعود من حيث أتى لتبتلعه الأزقة الضيقة في جوف الحارة.

في البيت تستقبله بلهفة وتتلمس جسده الفارغ، وبصوت محروق متلهف لم ينضب منذ خمسة وعشرين عاماً تعاود لهفتها القديمة:

ـ بشرا!

فيضمها إلى صدره برفق، ويعيدها إلى موقعها الذي أصبحت

تألفه كما تألف رائحتها، فتتحشرج الكلمات في حلقها فلا تقوى على شيء سوى الإجهاش بالبكاء، وتتمتم بلوعة:
ـ لا تيأس.. سيعود.

في الماضي البعيد كان صغيراً لا يعرف سراً لهذه الدموع المتسكبة على الدوام والتي تركت عينيها بيضاوين خاليتين من كل شيء إلا حركتهما المتلاحقة. كان يسمعها في أقصى الليل وهي تنتحب، وعندما كبر قليلاً كانت تسند رأسه إلى حجرها كلما سألها عن أبيه وتحكي له أنه سيأتي محلقاً ويهبط عليهما ذات مساء من إحدى الفرج، ولا تنسى أن تشير لتلك الفرج المستقرة بأسقف الغرف. كان يظن أن هذه الحكاية ستنقطع وينتهي أثرها حينما يكبر ظاناً أنها حكاية تنسجها لتستجلب النوم لعينيه المفتوحتين على الدوام (والتي أصبحت عادته حتى عندما كبر وأصبح رجلاً ثلاثينياً إذ ظل ينام مفتوح العينين). لكن تلك الحكاية لم تغطش بريقها السنوات الطوال ولم تنسها هذه المرأة التي ابيضت عيناها من سفح الدموع.

ففي أحد الأيام وبينما كان يعيد ترميم المنزل ثارت ثورة لم يعهدها منها وأقسمت أن تترك له الدار وتهيم في أرض الله إذا لم يترك تلك الفرج على حالتها الأولى، تلك الفرج التي استبقتها في سقف كل غرفة من غرف المنزل، وكانت تصيح به:
ـ أنسيت أن أباك سيعود إلينا من خلالها؟

ولكي لا يغضبها فقد استبقاها مشرعة للريح والمطر، فما أن تحل مواسم الأمطار حتى يستحيل المنزل إلى مستنقعات يتم نزحها بكل

عناء، وكان يجد صعوبة في إقناعها بنزح تلك المياه الراكدة بفعل المطر حيث تصر على بقائها وهي تغمغم:
ـ أجد فيها رائحة أبيك.

فيستجيب لها ويبقي مياه الأمطار راكدة دون أن يجرؤ على نضحها حتى تتحول إلى مياه آسنة تستجلب البعوض ودويبات الأرض.. عندها فقط تأتي لتقول له:
ـ لن يأتي أبوك في هذا الموسم فانضح هذه المياه الآسنة.

وفي كل عام تمضي مواسم الأمطار مخلفة حلماً قديماً شاخ بذاكرة تلك المرأة التي لم تيأس من عودة زوجها الذي خرج ذات ليلة ولم يعد، فقد حكى لها قبل اختفائه أنه رأى نسراً قوياً يخطفه ويحلق به في الفضاء ويقذف به في عتمة البحار النائية. وبعدها بليلة واحدة وبينما كانت نائمة أحست بشيء يتحرك من حولها وينفرج سقف غرفتها لتلمح زوجها معلقاً في الفضاء كطائر عملاق يخفق بجناحيه بشدة صوب البحر.. كانت تظن أنها تحلم فأغمضت عينيها وواصلت نومها وعندما أفاقت وجدت جزءاً من سقف غرفتها منبعجاً ولم تجد زوجها.

وروت أنها قطعت الأرض تبحث عنه ولم تعد لدارها إلا حينما أخبرها شيخ بأن زوجها سيعود ذات ليلة من المكان نفسه الذي خرج منه وأوصاها أن تبقي بيتها مفتوحاً وأن تهيئ له عشاءه ليلياً فسيأتي جائعاً كمن لم يأكل طوال حياته.

كانت تروي هذه الحكاية يومياً على مسامعه حتى جزم أن الجنون

اقتات عقلها وتركها عبئاً يحمله ضمن همومه اليومية، فكان يسايرها وفق ما تشتهي، ونادراً ما يتذمر منها أو يثور لتصرفاتها الغريبة.

كانت تدور ليلياً على تلك الفرجات وتنظر إليها لدقائق وهي تحمل شرشفاً طويلاً لتغطي به عُري زوجها حينما يأتي، فقد أقسمت أنه سيأتي عارياً كما تراه يومياً في منامها، ولم تكفّ عن هذه العادة منذ أن تغيّب زوجها عن البيت، فيما تعتذر من كثرة نومها لابنها بقولها:

- يلح عليّ أن أمكث معه أطول وقت ممكن فلا تلمني فأنت لا تعرف أباك، إنه صارم والويل لمن يغضبه، وأنا أحبه ولا أريد إغضابه.

فيهز الابن كتفيه محوقلاً، ويتركها وهي تلعنه لعدم تصديقها، وقد تمسك به معاتبة:

- أتظن أن أمك قد أصابها الجنون؟ نعم أنا أقرأ ذلك في عينيك ..قل ولا تخف.

وعندما تجده صامتاً وعيناه تركضان في اتجاهات شتى تتركه وسبابتها تركض في وجهه وصوتها يتداح عميقاً متيقناً:

- سوف يأتي كما أراه ليلياً، ساعتها ستندم وتطلب عفوي ولن تجده.

كانت في ما مضى تجمع مياه الأمطار المنسكبة من فرجات غرف المنزل في أوانٍ خزفية وتسقي بها أرضاً أعدتها لذلك وكلما نبتت نبتة ظنت أنه هو فقد أقسمت أنه سينبت كما تنبت أشجار الموز

وسيخرج من غلف إحداها، ليطير إلى السماء ويعود من حيث خرج، إلا أن خيبات الأمل كانت تلاحقها فما أن تبتعد النبتة بساقها عن الأرض قليلاً حتى تذوي وتذبل فتعجز كل محاولاتها لإعادة استقامتها، ولم تغير هذه العادة إلا حينما علمت أن الحمير تتبول بتلك الأرض، فلجأت إلى جعل كل غرفة من غرف المنزل مهيأة لأن تنهض ببذرة الموز..كان بيتاً غريباً، أسقف منبعجة وأرض مزروعة وامرأة تدور بشرشفها ليلياً تنتظر من تستر عورته.

غالباً ما يتركها وهي لا تزال في ثورتها العارمة:
ـ سوف يأتي كما أراه ليلياً، ساعتها ستندم وتطلب عفوي ولن تجده

≈

دأبت على المكوث في مقهى الشاطئ حيث يتوافد الصيادون ويتناثرون في أماكن مختلفة لا حديث لهم إلا البحر ومغامراته، والبعض منهم يستغل هذا الوقت في رتق شباكه أو إصلاح قاربه الشراعي الذي مضغته رياح البحور العميقة، بينما يظل داخل المقهى مرتعاً للعب والضحكات واحتساء الشاي.. وإن كانت الغالبية تأنس للجلوس واجترار الحكايات القديمة.

لم يكن يستهويهم الصيد بالقرب من المدينة، إذ تجدهم ينطلقون جماعات باتجاه السودان أو إثيوبيا وبالقرب من تلك السواحل يرمون شباكهم وآمالهم وأهازيجهم الممتلئة بالشجن وينتظرون ما يقذفه البحر لهم.

يقولون إن أبي كان يمتلك صوتاً رخيماً ينشط له أكسل الصيادين فيقفز كالملدوغ يجذب الشباك ويشارك الصيادين ترديد الغناء.

في هذا المقهى لا يجلس إلا من ارتبط بالبحر صياداً أو تجار قوارب أو بائعاً لسمك أو محرجاً، ولم أكن لأحظى بامتياز في هذا المقهى لو لم أكن ابن ذلك البحار الذي كان كما يقولون صياداً لم ينجب البحر مثيلاً له. فقد كان يعرف أسراره وخباياه وكثير منهم لا يؤمن بأن أبي يمكن أن يكون قد ابتلعه البحر كما يبتلع الأجساد الرخوة والتي سرعان ما يلفظها ويقذف بها على سطحه لتطفو ويتخطفها الطير.

ويرجحون أنه مل حياة هذه المدينة التي تستقبل الغرباء وهي نائمة، أولئك الغرباء الذين يحولون بحرها إلى مستنقعات وأحواض لأسماك الزينة فلا تثور لكرامة بحرها، ولأنه بحار عتيد مل هذه الميوعة وهجرها صوب المحيطات حيث يكون البحر فتياً.

يومياً أجلس في هذا المقهى ارتشف كؤوس الشاي وأستمع لتلك الحكايات العجيبة من مغامرات الصيادين حتى إذا دنا الغروب عدت إلى البيت لأجد أمي لا تزال توسوس بسيرة زوجها.

منذ أيام قدم أحد الصيادين (السوادنة) فكان محل حفاوة الجميع حيث أحاطوا به بإجلال وانثالت الحكايات ورائحة البحر، وأغنيات الدان دان.

كنت على مقربة منه فكان يخالسني النظر بين الحين والآخر بشيء من التأمل والتفحص .. كنت ألمحه بعمته الطويلة والمتكومة على رأسه كجبل قطن متماسك وقد تناسقت مع ذقنه الكثيفة

المهذبة المخلوطة ببياض ناصع. كانت عيناه شديدتي اللمعان تومضان ببريق خاطف ولهما مقدرة على اختراق من تنظران إليه حتى أحسست به يتجول في خاطري، نظراته المتكررة أشعرتني بالضيق فهممت بمغادرة المقهى، إلا أن صوت شيخ الصيادين جعلني أتوقف وأستجيب له، تحركت باتجاهه، كان يجلس عن يمينه ذلك البحار السوداني وعندما وقفت أمامهما قال له:
ـ هذا ابن الناخوذة حسين المعلى.

مد يده مصافحاً ومرحباً ترحيباً مبالغاً فيه، فشعرت بالحرج وبادلته التحية فتمتم وعيناه تنهبان وجهي:
ـ كيف حال أبيك؟

فتحرك شيخ الصيادين في جلسته مصوباً النظر صوبه باستنكار:
ـ ألا تعرف أنه متغيب يا شيخنا؟

فلم يعره اهتماماً، وغرس عينه في وجهي وهو لا يزال يبث ابتسامته الناصعة ..وباغتني:
ـ أما زالت الوالدة تنتظره؟

انتفضت وهززت رأسي بالإيجاب فقال:
ـ لا تذهب أريد أن أحدثك.

فأوسع لي بعض الصيادين مكاناً بينهم وجلست أنتظر بينما كان يسرد بعض حكاياته مع البحر. بعد أن فرغ المجلس إلا من كبار الصيادين أستأذنهم وانتحى بي جانباً، وأخذ يلاطفني، أوصاني أولاً بوالدتي خيراً:

- كن رحيماً بأمك.
- لكنها لا تمل من ترديد سيرة أبي الذي مضى من زمن بعيد.

فألقى كلمته بثقة ليرتج كل ما بداخلي:
- سيعود
- هل تعرف عنه شيئاً؟

صمت صمتاً مهيباً وإن ظلت عيناه تتفرسانني بارتياب، وبنبرة مترددة تساءل:
- هل تريد رؤيته الآن؟

تشككت كثيراً بالرجل، وبتلك الحفاوة التي منحها له الصيادون، فرددت بآلية:
- أظنه قد مات من أمد بعيد.

ابتسم ابتسامة مظللة ولم يعقّب على مقولتي وتناول كأس شاي فارغاً وصب فيه ماء ورفعه إلى فمه وأخذ يتمتم عليه وأدناه من عيني لألمح رجلاً يجلس في قارب يغزل شراعاً بمهل وإتقان وقد أصابه الضمور ..كنت أحدق بدهشة، ولم أفق إلا على صوت البحار السوداني وهو يقول:
- هذا هو أبوك.. انتظره سيعود من البحر كما ذهب إليه.. إذا لم تنتظره فلن يأتي!!

قلت متلهفاً:
- متى سيأتي؟!
- هذا في علم لا أقدر على قراءته.. ولكنه سيأتي.

وقبل أن يهم بالتحرك قال:
- إياك أن تتأخر عن لقائه فسيكون أحوج إليك ساعة أن يصل.

ونفض مؤخرته ماداً يده باتجاهي وضغط عليها بود، ثم مضى ينهب الطريق بقامته الفارعة، وقبل أن يبتعد استدار إلي موصياً ومحذراً:
- عليك بالانتظار مع غروب كل شمس وإياك أن تتخلف الموعد لأي سبب من الأسباب، وإذا تغيبت عن الموعد فسيلقى ببيتكم من إحدى الفرجات طائر ذاو هو روح أبيك فحذار أن تغيب وحذار أن يراك أحد.. مفهوم.

استشارني فصحت به:
- أين أنتظره؟

كان يطلق الكلمات من خلفه:
- من جهة بزوغ نجوم الدب الصغير.

لم تشفني إجابته فانطلقت راكضاً خلفه، فاستدار وقد بدأت على هيئته علامة الغضب:
- لا تتبعني ويكفي ما سمعت.

كانت كلماته حادة ونظراته عدائية، فامتثلت لأوامره ولم ألحق به، وواصل سيره الحثيث باتجاه البحر بينما كان كبار الصيادين يلوحون بأياديهم لوداعه.

من ذلك اليوم وأنا أخرج يومياً أنتظر مقدم أبي.

≈

تحاملت على نفسي بقدر الاستطاعة كي أنهض وأتجه إلى تلك البقعة النائية من الشط، لكن هذا الدوار اللعين منعني بالرغم المحاولات العديدة التي قامت بها والدتي لإسكات هذا الطنين الذي ينمو من الداخل ويتحول إلى دوار عنيف يعصف بكل كياني فلا أقوى على شيء سوى الإمساك بوسادتي ودفن رأسي بين طرفيها بينما كل شيء من حولي يموج ويدور ويدور ويتحول إلى دوائر تتسع وتضيق وتجذبني بقوة وعنف لأسفلها.

كنت أجاهد لأتغلب على هذا الدوار ولا شيء يربطني بالأرض إلا صوت أمي التي كانت تواسيني بصوت حانٍ:

ـ تحامل على نفسك فقد أزف الموعد.

أبتعد عنها كثيراً، وأغرق بدواري، أذهب معه بعيداً، وأمسك بنفسي كي لا ترحل فيجذبني وينطلق بي كالإعصار وأغيب، أغيب في اللاشيء، في أوقات هلامية متباعدة أسمعها، تستنهضني، فأجاهد وأجاهد وأغرق في دواري، أرى بحراً عظيماً وأرى جسدي يتقاذفه الموج، يمضغه حيناً ويلفظه حيناً، وأنا أتخبط وأرفع رأسي، وأصعد، أصعد وأبتعد قليلاً عن الدوائر السفلية لذلك الدوار. من بعيد عاد صوتها ملحاً «بريذم» الدفوف الثقيلة، وينشط حيناً ويذبل بأسى. أحسست بيدها تمشط شعري، ورائحة عطر ليمون فاحت من أسماك تقافزت بالقرب من رأسي. أخذت أجاهد للإمساك بصوتها وكأنه حبل نجاة بينما كانت تزفني حيتان البحر وأسماكه.

فجأة تخلت الأسماك عن مصاحبتي وتغير صوت أمي فسمعتها تصيح بجنون:

ـ هذا طائر ذاوٍ يسقط علينا..انهض.. انهض.. انهض..

وكلما حاولت النهوض خارت قواي واتسعت دائرة الدوار فألمح أبي يسبح باتجاه الشاطئ بصعوبة فتخاطفه الأمواج وصوته يصيح:

ـ ساعدني..انهض .. ساعدني.. انهض.

وتبتلعه دوامة كبيرة، فأراه يتلاشى، ليعود الطنين ..كانت والدتي تحاول إنهاضي وكلما حاولت النهوض ازداد الدوار، فألمح البحر يقذف بأمواجه ويسعى في الشوارع، يدخل للمنازل ويسحبني صوب جثة انتفخت على سطحه لأسحبها ونتلاشى سوياً في القاع.

جارتنا الصغيرة

ـ هل ما أقوم به يُعدُّ حماقة؟

كانت أصغر مما توقعت، فهذه هي المرة الأولى التي أراها بوضوح، وعلى الأرجح أن عمرها لا يتجاوز العشرين عاماً على أبعد تقدير، وجهها جذاب بصورة لا تمكنك من معرفة سر جاذبيتها تلك، فقط تشعر أن ثمة جمالاً غريباً يسكن بين تلك الملامح الهادئة وكأنها لوحة رسمت بيد أحد عباقرة فناني القرن الثامن عشر.

كانت أجمل بكثير ممّا حدثتني زوجتي، فهي فتاة دقيقة الملامح، خمرية البشرة، شفتها السفلى مسترخية وناضجة تجزم أن دمها سيطفر في أي لحظة، ولها عينان كاحلتان انسدلت أهدابها حتى تثنت للأعلى فأكسبتها سحراً فاتناً، بينما كانت سحنتها هادئة تشعرك أن ثمة ألماً حنط جمالها فاستسلمت له بخنوع.

كانت تقف في البلكونة لنشر غسيلها، وكان من عادتي أن أتراجع عند رؤية إحدى الجارات إذا جمعتنا حوادث طارئة، ولم يكن هذا عفافاً أو ورعاً إنما استجابة لخوف ينتابني من أن تلحق بسيرتي أقاويل النسوة من أن عيني طويلة وحادة، أو أن تتبرع إحداهن وتبلغ زوجتي عن اتساع عينيّ، عندها لن تكف زوجتي عن تأنيبي وتذكيري بأنني أقدمت على شيء عظيم وأنها لن تغفره لي وستظل تعيّرني به كلما حاولت أن أكون سيد البيت. لكن هذه المرة تخليت عن تخوفي أمام فتنة جارتنا الصغيرة، وأخذت أتطلع إليها بنشوة.

كان مقدمها إلى الحي حدثاً تناقلته النسوة بدهشة واشمئزاز، ففي أول ليلة لمقدمها تعالت صرخاتها ونحيبها، وكنا نسمعها تصرخ باستغاثة محمومة:

- ارحمني..

وتذهب استغاثتها توقظ سكون الليل من غير أن تجد أحداً يجفف استغاثتها المبللة في المسامع، وهذا لا ينفي إنصات الجيران لتلك الصرخات المحمومة بكثير من التحفز والاستغراب، كنت قد استويت في مرقدي وخاطبت زوجتي بدهشة:

- أهذا صوت العروسة الجديدة ؟

فتهز رأسها كدمية تنتظر أن تنتهي تلك المعزوفة الركيكة لتوقف اهتزازها المتكرر أمام دهشتي المفتعلة. حاولت أن أعرف منها شيئاً عنها لكنها أبدت عدم معرفة مسبقة بها، وبكلمات مقتضبة أخبرتني أن العريس ليس صغيراً وقد سبق له الزواج مرات عديدة. كانت هذه الأخبار جزءاً مما تناقلته نساء الحي عن الساكن الجديد نقلاً عن

زوجة صاحب العمارة، وقبل أن تطول استفساراتي أبدت امتعاضها من أولئك الرجال الذين يسعون لإشباع نزواتهم من غير أن يفكروا بمصير أبنائهم، ولم أحاول التعليق على ذلك الامتعاض خشية أن تنقلب ليلتنا إلى صراخ متبادل.

كان صراخاً أنثوياً يمتد في هجعة الليل بانكسار وألم مبرحين، وإزاء هذا الاستنجاد المحموم تقافزت عيوننا من خلال البلكونات والنوافذ فلا نلمح إلا عيون بعضنا الرابضة والمتربصة بتلك الغرفة ذات الأضواء الشاحبة والمغطاة بستارة غامقة.

يبدو أننا شعرنا بالخجل من تحديقنا المتبادل فانسلّت عيوننا إلى داخل جحورها واكتفينا بسماع تلك الصرخات المستغيثة والتي تكتم حيناً وتشق سكون الليل أحياناً كثيرة وكأنها هاربة من فم محكم الإغلاق، وشيئاً فشيئاً أخذت تتراخى تلك الصرخات وتجاور ألمها بصمت.

لم أجد رغبة في النوم فنهضت من مرقدي أبحث عن علبة الدخان وتركت زوجتي تسترخي كقطة أخذت تتلوى وتتهيأ لبسط أعضائها بما يحقق لها الاستحواذ على أكبر مساحة من سرير نومنا الخشبي، كنت أذرع غرفتنا الضيقة بخطوات متناسقة في محاولة أن لا أتعثر بالتحف التي تملأ حيزاً كبيراً من جنبات الغرفة .تهيأ لي أن جرس الباب يدق، أصخت السمع محاولاً إهمال صوت المكيف الذي يئز برتابة يقطعه بين حين وآخر صوت أقل ضجيجاً، كانت أضواء الغرفة مطفأة فلم أتمكن من الحصول على علبة الدخان مما حملني على كبس زر الإنارة لتنهض زوجتي متأففة:

ـ تحب دائماً إزعاجي.

اعتذرت بطرف لساني كطفل أدمن الاعتذار المتكرر، كان صوت الجرس يصل متقطعاً، أكدت هذا زوجتي بشيء من السخرية:
ـ ألا تسمع الباب، أم أنك تسمع صياح النساء فقط؟

لم أشأ أن نتبادل المماحكات، فأهملتها وهي لا تزال تتمطى على السرير، واتجهت مباشرة لأرى من الطارق، كنت أهمس لنفسي:
ـ من يكون هذا الزائر المزعج؟

رفعت صوتي من خلف الباب:
ـ من؟
ـ أنا جارك الجديد..

فتحت الباب على عجل.. كان يقف رجل خمسيني ذو جثة ضخمة لا تزال عالقة بملامحه آثار فرح بكر، ولذة منهزمة كان يقطم الكلمات قطماً:
ـ عذراً للإزعاج ..

أبديت عدم الاكتراث، وأفهمته أننا لا نزال مستيقظين، فقال على عجل:
ـ الأهل يعانون من حالة نزيف فهل بإمكانك نقلنا إلى المستشفى
ـ سلامات.
ـ الله يسلمك.
ـ خير.

وقف أمامي مباشرة ووجهه يطفح بالضيق من تطفلي ومحاولتي

إقحام نفسي في أمر لم يود الإفصاح عنه، فاستدركت على عجل:

- حسناً، فقط أرتدي ملابسي.

ودعوته للدخول لكنه امتنع ووعد بزيارة أخرى في وقت مناسب، تحركت إلى الداخل لارتداء ملابسي، وتركت الباب موارباً، كانت زوجتي قد غادرت فراشها ووقفت في الصالة وعندما رأتني بادرت بالأسئلة:

- من الطارق؟
- العريس.
- ماذا يريد؟
- المستشفى.
- طبعاً تبرعت بنفسك لأداء المهمة.
- ...
- تعجبك هذه الفزعات.
- ......
- لو كنت أنا المريضة لادّعيت أنك متعب أو على وشك النوم ولأجبرتني على تحمل الألم مقابل أن تستمتع بنومك.
- ....
- لماذا لا ترد؟
- ماذا أقول؟
- قل إنك مغرم برؤية النساء وإظهار شهامتك لهن.
- الذي يقف على الباب رجل وليس امرأة.
- أنت تقدم السبت
- وأنت تقدمين سوء ظنك.

اتجهت مباشرة نحو علاّقة الملابس، وكنا على وشك أن تُسمع الجيران أصواتنا لأنها ألقت بالثوب الذي كنت أرتديه في الغسالة وليس هناك ثوب بديل ..واحتجّت على غضبتي المفاجئة بأنها دائماً ما تنهض معي وتقوم بكي ثيابي قبل مغادرتي للعمل وذلك أثناء تناولي لوجبة الإفطار، واختصاراً لموال طويل فقد اتجهت إلى خزنة الملابس وارتديت ثوباً مغربياً وهممت بالخروج، فأمسكت بي:

ـ تريد أن تفضحني؟

وأصرت على أن تقوم بكي ثوب آخر وأقسمت أنها ستنجز مهمة الكي قبل أن أخرج من الحمام، فأصررت على الخروج بالرغم من تلك الكلمات التي قذفتها على مسامعي:

ـ أنت دائماً تسعى لفضيحتي حين تخرج بثياب لا تليق برجل متزوج،ماذا يقول الناس عني؟ لا أهتم بهندامك.

عندما خرجت لم يكن جاري في مكانه، فنزلت من سلم الدرج وانتظرت بجوار سيارتي بعد أن أدرت محركها، لكنه لم يظهر. وفكرت أن أقوم باستدعائه، وبعد انتظار طويل صعدت إلى شقته وقرعت الجرس وانتظرت وأعدت المحاولة وانتظرت.. عندها أيقنت أن جاري لم ينتظرني أو أنه سمع مجادلتنا أنا وزوجتي فقرر أن يستعين بشخص آخر، فعدت إلى البيت لأجد زوجتي قد رتبت نفسها لخوض شجار استنبتته من حكايات قديمة! كانت مستنفرة وفي حالة عدائية تدربت على شنها في مثل هذه الحالات، وبدأنا الشجار الذي انتهى بأن حملت وسادتي وغطائي ونمت في الغرفة المجاورة بينما كان صوتها يلعن حظها العاثر.

في صباح ذلك اليوم انتشر خبر تلك الفتاة بين النساء ويبدو أن زوجة عبدالله حسين من قام بتسريب الخبر.. وظل الخبر غارقاً في أفواه النساء لمدة طويلة حتى أن الفتيات أقسمن أن لا يتزوجن فقد كان الخبر كفيلاً بجعلهن يفضلن العنوسة على الموت تحت ثور لاهث.

في بادئ الأمر كان خبر العروسة غامضاً حيث قيل إن بكارتها استعصت على زوجها مما حمله على وكزها بقوة جعلت الدم يتدفق بغزارة، وعلقت المسنات على هذه الحكاية بأن فتيات هذا الزمان أرق من ورق السوليفان، لكن هؤلاء المسنات سحبن هذا التعليق واستبدلنه باللوم على رجال هذا الزمان الذين يبحثون عن البكور ليذيقوهن فحولة رخوة لا تقيمها إلا أصابع اليد.

ومع تدفق النسوة على بيت العروسة خرجت أخبار مدفونة كثيرة.. فروت ليلى - جارتها الملاصقة - أنه استبدل عضوه بإبهامه، وأخرى - زوجة من قام بنقله إلى المستشفى - روت أنه اندفع على المسكينة كحيوان كاسر فجر القناتين وجعل مجراهما واحداً، وهذا يفسر لي قول زوجتي - فيما بعد بأنها:

- فتاة تسير كالضباع.

لا أدري لماذا أصبحت جارتنا الصغيرة محل اهتمامي؟ وقد حاولت في بادئ الأمر أن أراها وزادت هذه الرغبة إلحاحاً كلما سمعت زوجتي تروي لي شيئاً مما سمعته في مجلس النساء عن هذه العروس.. وتحولت مع الأيام إلى جدول يومي نتحدث فيه (أقودها للحديث عنها من حيث لا تدري)، فروت أنها ابنة لأحد ضعفاء النفوس وقد باعها لهذا المسن مقابل عمارة.. وروت أن هذه الفتاة على علاقة بشاب لم ينقطع عنها حتى بعد الزواج حيث تناقلت

النسوة - أيضاً - أنه يقف يومياً أمام منزلها كلما غادر زوجها البيت للعمل، وروت عن جارتها أن العروسة زميلة لإحدى بنات العريس وأنها كانت تناديه بلقب (يا عم) حين تحضر لزيارة ابنته.

اليوم رأيتها، كانت أجمل بكثير مما حدثتني زوجتي. شعرت بوجودي وأنا أحدق في وجهها بانبهار فرمقتني بنصف نظرة وأطلقت ابتسامة خفيفة، فتشجعت وهمست:

ـ مساء الخير.

تطلعت صوبي بدلال وحملت غسيلها وانسحبت إلى داخل شقتها، وهي تتطلع صوبي، وبخبث غمزتها بعيني، فاتسعت ابتسامتها وحركت يدها مشيرة بالانتظار.

.. من أي الجهات تأتي؟

وقفت على جثمانه، كان ممدداً باستسلام، مغمض العينين والفم، يداه مضمومتان على صدره، ودمه الذي كان يغلي باستمرار برد في أوردته وأحال لون بشرته الصفراء الصافية الى زرقة شاحبة.

دأب على الحضور إلى المقهى لا يغيب عن جلسته إلا عندما يحل ضيفاً على مستشفى «شهار»، يجلس خلف شيشته ينفث الدخان بكثافة وهو ينثر وساوسه بصوت مسموع. لم يكن يجالسه أحد، يظل في مكانه لساعات طوال، لا يقترب منه إلا النادل أثناء تغير حجر الشيشة أو تزويده ببراد شاي منعنش. هيئته رثة، تثير التقزز فرائحة عرقه تفور وتلتصق بالأنف كجثة بس ميت.. وعندما أحقره لإهماله موصياً إياه بدلق الماء على جسده يردد:

ـ رائحتنا بصمة أخرى لا تعرفها إلا الزوجات وأنا

ليس لدي امرأة أسكن إليها فما الذي يدفعني للتخلص من بصمتي؟

وقف المغسل على رأسه يصب الماء صباً ويخلله بين مفاصله ويدعك محاشمه بالسدر، جفل عندما رأى عانته، وتمتم:
- أكاد أقسم أنه لم يغتسل من أمد بعيد.

رد أحد جيرانه متعجلاً:
- هذه نهاية أمثاله، فهو لا يفيق وإن فاق سارع إلى العودة لغيبوبته بشراب مضروب.

تطلعت صوبه بعتاب، وكمن أحس بخطأ مفاجئ سارع بالاستغفار:
- أستغفر الله، اللهم ارحمنا برحمتك.

فردد جار آخر يترحم:
- رحمه الله، لم يكن معنا. كان عقله بعيداً عنه وهذا من المعتوهين.

يبدو أن المغتسل ندم على مقولته، فأعاد صب الماء وتدليكه وهو يدعو بأدعية لا نسمع منها إلا تمتماتها.

≈

لم يكن يكره في حياته إلا اثنين: الماء، والصدمات الكهربائية.

وكرهه للماء أمر عجيب بدأ معه من مراهقته، فما أن يغتسل حتى

تنتشر على مساحات جلده حبيبات مقيحة، فيظل يهرشها حتى يطفر الدم من تحت أظافره، ويسدل على جسده أغطية ثقيلة تعيد إليه الدفء، ففي أيام الشتاء لا يقرب الماء البتة.

في غرفته شبه المظلمة احتفظ بجردل ملأه بالتراب يتيمم به في أيام الجمع والتي حرص على أدائها في المساجد البعيدة. يخرج قبل الأذان الأول ويظل يعبر الأحياء حتى يصل إلى جامع الفلاح ويدخل للمسجد ويظل في سجود وركوع إلى أن تقام الصلاة، فلم يكن يستمع للخطبة ويظل يجهش بالبكاء أثناء قراءة الإمام، وبعد أن يخرج ينسى المساجد حتى الجمعة التالية، كان يردد دائماً:

ـ من الجمعة للجمعة كفارة لما بينهما، وأنا لا أؤذي أحداً.

لم أره حريصاً على شيء كحرصه على أداء صلاة الجمعة، ليلتها يدلق أواني الخمرة، ويتيمم ويقرأ القرآن ويضع خطوطاً على آيات كثيرة، وينام مبكراً، وقبل حلول الوقت يخبط راحتيه في جردل التراب المجاور لمرقده ويمرر يديه على وجهه وأطرافه، ويتجه للمسجد ـ غالباً لا يعود لمسجد صلى به ـ.

دائماً ما يكون محل اهتمام الآخرين، فركوعه وسجوده وبكاؤه تثير الانتباه، ويظل المصلون يحدقون به باسترحام وباستنكار وبفضول، بينما يظل غائباً عنهم في أداء طقوسه التي سكن إليها واطمأنت بها جوارحه، وما أن تنتهي الصلاة حتى يقترب منه كثير من المصلين ويدسون بيده نقوداً ويغادرونه وهو غارق في ذهوله.

في البدء شتم ولعن وصاح:
- لست مسكيناً!

فلم يكترث بصياحه أحد، يمدون له صدقاتهم، ويغادرونه داعين له بالشفاء، ثم ارتضى بهذه الهبات بطيب خاطر إذ وجدها وسيلة جيدة تعتقه من الاستدانة والتذلل لبائع العرق.

كان يروي لي بعض مواقفه وهو يضحك بعمق ويردد:
- لو يعرفون أن صدقاتهم تصبح سيئات في يدي لما أقدموا على منحي قرشاً واحداً. إن هؤلاء يطلبون الرحمة بصدقاتهم وأنا أجلب بها السيئات حين أشتري بها ما يخرجني من دنياهم.

كان مخموراً طوال الوقت وإذا أفاق من وساوسه لم يفق من خمره، يجوب الشوارع والأزقة يهذي بصوت مرتفع ودائماً يردد:
- يا ريح دلني من أي الجهات تعود؟

ذات جمعة رآه أحد الطيبين فأشفق عليه، واقترب منه مسلماً ونقده مائة ريال، ارتبك كثيراً حين رآها بيده، ومن شدة فرحة خلع سرواله وأداره في الهواء مراراً، كانت هذه بداية الشك في قواه العقلية، وعمّقتها بتصرفات أخرى عندما أخذ يهذي بكلام مسكوت عنه، وتربصت به عيون كثيرة قادته في آخر مطافها إلى مستشفى الأمراض العقلية.

≈

ما زال المغتسل يصب المياه صبّاً، ويتمتم بالأدعية بينما كان جاراه المتواجدان يستعجلانه بضيق:

ـ قرب وقت الصلاة.

الماء ينساب من أسفل السرير الذي استقر عليه وجسده أزرق وتفجرت عروقه الضامرة وكأنها حبال لم تجدل جيداً.

(ما الذي حدث الآن؟ ما بال جلده لا يستجيب لهذا الماء البارد المنسكب على جسده ويتقبب كسابق عهده؟ يا لهذه النفس تريد وتريد وتمضي دون أن تحقق ما تريد، كانت نفسه نهمة تريد أن تعرف ما لا يعرف. أتعبته خلال سنوات طويلة وفي لحظة غامضة انسلت من بين ضلوعه وتركته للدود والتراب يمضغانه باشتهاء. ها هو كبيت غادره أهله تاركين كل أثاثه فأخذ يستقبل الريح والصمت بوحشة واستسلام، ها هو مسجى لم يتغير فيه شيء وكأنه استرخى للحظات ليريح رأسه من وساوسه التي لا تنام، صامت لا يقوى على شيء، أين ذلك الصخب الذي كان يتركه خلفه؟ ..من يصدق أن هذا الكائن كان قبل لحظات يتسق العالم كما يشتهي، ويرى أن الكون يخضع لإرادته، كان هذا قبل قليل ..قبل قليل فقط، ها هو يدخل الآن في فجوة جديدة من الزمن اللامتناهي، في وجود لم يأت أحد ليخبرنا عن ماهيته).

كانت وفاته مفاجئة. لم يخطر ببال أحد أن هذا الجسد الفارع سيسقط فجأة ويتوقف قلبه عن الخفقان وستتوقف كل تلك الصراعات العنيفة التي تعترك بداخله. فجأة سقط وانطوت معه أفكاره المجنونة التي قادته مراراً إلى مستشفى «شهار» ليقضي شهوراً هناك ويعود أكثر تصميماً على أفكاره.

استسلم جسده لدفعات المغسّل وأخذ يترجرج ببطء تحت تلك اليد الحازمة. وضع المغسل القطن في دبره وأذنيه واستصعب عليه فتح فمه، كان مطبقاً فكيه وكأنه كان يقضم من استلّ روحه، فصلبت أوداجه وانطبقت أسنانه على بعضها بقوة، وقد أصر المغسّل على فتح فمه بأي طريقة كانت ليضع القطن فوق لسانه، وعندما عجز طلب ملعقة وأخذ يحاول بطرق عدة فتح ذلك الفم المطبق. وعندما استعصى عليه الأمر، استغفر ربه، وكسر ثنيته وأدخل عجز الملعقة من خلالها وضغط على طرف الملعقة فسمعنا صريراً كصرير الأبواب المهملة. وكلما تراخى ضغطه عاد الفم لانطباقه، وعندما عجز عن فتح ذلك الفم بمفرده صاح يستحثنا لمساعدته فأمسكنا بفكه الأسفل بينما ظل يرفع بالملعقة فكه العلوي لينفتح فمه قليلاً، استبشر المغسل وردد بحزم:

- يكفي هذا.

وسلل قطعة القطن بين فكيه وحشرها حشراً.

حضر الغسل أنا والمغسل واثنان من جيرانه، وبعد انتهاء الغسل انسحبوا وبقيت معه، كان مجرد لحم لف بشاش، لا أدري لماذا تخيلته خروفاً تم استقدامه من مناطق بعيدة وظلت البرودة محافظة على ذلك اللحم من العفن. فجأة سرى ببالي أن جسده أخذ في التحلل وأن رائحة عفنة أخذت تجوب فضاء الغرفة، وأحسست أنني غير قادر على تحمل تلك الرائحة، وخوفاً من أن يتحلل فتحت المكيف ووجهته باتجاهه. كنت أراه يتحلل أمامي وكلما حاولت أن أطرد هذه الخيالات الملحة يضحك من رعبي ويواصل تحلله وهو يضحك كعادته وصدى صوته يتردد:

- كل شيء عائد فلا ترتعب.

استعذت بالله وتناولت مصحفاً قريباً - وضع فوق كتبه المتناثرة في داخل تلك الغرفة ذات الأثاث الرث - كان قد ترك عليه خطوطاً كثيرة في مواقع مختلفة، فتحته وقرأت وقرأت، وقرأت. شعرت بالارتخاء وتسللت الطمأنينة لداخلي، وكنت لا أزال خائفاً من وسواس نبت بمخيلتي فجأة.

≈

عاش حياة غريبة، وفي كل منعطفاتها كان يؤمن بنفسه، يؤمن بالعقل وأن هذا العقل له وسائط تنقله من مراحل الفناء إلى التجدد والتشكل، كان يرفض فكرة التناسخ ويضحك بعمق عندما يمازحني: تصور أن تعود بصورة حمار! ساعتها لن تغضب إذا نادى عليك أي شخص بهذا الاسم،كان دائماً ما يكرر:

- ثمة طريقة مثلى للعودة، إن الرياح تلف الكرة الأرضية وتعود ولا يستطيع أحد أن يجزم أنها ليست الريح نفسها التي عبرتنا قبل سنة أو أيام.

سارت جنازته سريعة صاخبة حيث اختُلف حول الصلاة عليه فقد أقسم المؤذن أن أمثال هذا يدخلون النار من أوسع الأبواب، وكان الإمام متحفظاً ويردد:

- إن الله يعلم السر وأخفى.

المصلون خرجوا ورفضوا أداء صلاة الميت، ولم يفلح الصوت في تذكيرهم أنه مجنون وقد قال أحدهم: إذا كان مجنوناً فهو معفى من كل الواجبات، حتى نحن مُعفَون من الصلاة عليه.

عندما كبّر الإمام لصلاة الميت لم يكن واقفاً في الصلاة سوى الخطيب وأنا وسائق السيارة التي ستقله للمقبرة ورجل عجوز لم يستطع النهوض فبقي لأداء الصلاة على أمل أن نمد أيدينا له وننهضه فيما بعد.

كانت صلاة قصيرة وسريعة وبعدها تعاونا ثلاثتنا على حمل نعشه إلى خارج المسجد وإركابه سيارة النقل الصغيرة التي كانت تنتظره.. ونسينا الرجل المسن فلم نساعده في النهوض.

انطلقت السيارة بينما ظللت أنا والسائق نتبادل الآراء: في أي المقابر ندفنه؟!

≈

دائماً ما نجلس في المقهى ننثر أحزاننا وفي أحيان كثيرة نتبادل النكات البذيئة تعليقاً على ما يحدث.

حياته صعلكة تبدأ وتنتهي بالمقاهي الليلية، في النهار يشعر بالاختناق فينام في غرفته الرثة، فإذا استيقظ قبل الغروب يخرج ليجوب الشوارع والأزقة، يجالس المسنين ويسمع حكاياتهم وفي أحيان كثيرة يذهب للوراقين ويظل يقرأ ويقرأ ليعود أكثر وحشية ورفضاً.

نتلاقى في المقهى بدون سابق موعد فأجده يسعل حتى تشعر أنه انتهى تماماً، وفجأة يفيق من سعاله وينظر إليّ بابتسامة منفتحة للمدى:

ـ الحياة موت دائري يا صاحبي..

ودون أن ينتظر جواباً يردد:
- إنها تتجدد في صورة ما وفي زمن ما.

في أحيان كثيرة أعجز عن فهمه فأتركه يهذي بأسئلته، وأظل صامتاً أجتذب دخان الشيشة أتطلع إليه وهو يتصاعد ثم يتلاشى فيصيح:
- انظر، دخان لا ينتهي، ينشطر ويتحول إلى دوائر تتمدد في الفضاء، كل الحياة دوائر لا تنتهي ونحن أجزاء تنشطر وتتواجد بصورة أخرى.

عندما وجدني صامتاً ضحك حتى اهتزت كل أطرافه ..وصمت فجأة وأخذ يجتر دخاناً كثيفاً.

بدأت صداقتنا منذ زمن بعيد، منذ أن كنا طلاباً بالمرحلة الثانوية، نتحرك سوياً ونقتعد كرسيين متجاورين. في يوم قال مدرس التاريخ:
- التاريخ يعيد نفسه.

فرفع يده سائلاً:
- هل يعود الزمن أم الأشخاص؟

فرد المدرس: بل الظروف.

ومنذ ذلك اليوم أصيب بلوثة وأصبح يقرأ عن الزمن، وعندما سمع أن السحرة ينتقلون إلى أماكن مختلفة في اللحظة نفسها تعلّم السحر، وضاع عقله بين تلك الأوراق الصفراء ولم يخرج منها إلا للمقاهي.

≈

عندما وقفت على بوابة المقبرة كان جثمانه يترجرج بين يدي نفر تبرعوا بنقله إلى داخل المقبرة، دم الشفق يسيح على جانب الغروب فيملأ المكان وحشة إضافية، وصمت فاتر تحركه مخاوف تلك القبور المتراصة في خطوط متوازية وبعض الشجيرات التي نمت على بعض القبور بعشوائية، وريح باردة تخترق العظام عنوة وتنطلق هاربة من فوق الأسوار المنخفضة.

تحرك القبّار حاملاً مسحاته صوب صف مرقم برقم ١٢، كان ثمة قبر ينتظر شخصاً ما ليغلق عليه دفتيه ويغيبه في باطنه، هبط القبار في داخل القبر ومددنا له بالجثة، تناولها ببرود وصاح بي:
ـ انزل لمعونتي.

تسارع وجيب قلبي، وأحسست بالاختناق وأنني سأقبر معه، دفعني من حضر الدفن فنزلت على مضض، أسندته إلى يمينه وأحللت أربطة كفنه وأسندته بتراب متسيخ، فنزّ دهن من تلك التربة وأنفشت طبقة أبانت نملاً محمراً ذا أرجل طويلة وحركة سريعة، ارتقى ساعدي بهمة فشعرت بالرعب، نفضته، وصعدت على عجل، وأغلق عليه القبر.
ـ أحقاً انتهى هذا الرافض لكل شيء؟

كان معاونو القبار ينتظرونني وعندما وقفت في مواجهتهم اصطنعوا الحزن وانتظروا أن أمد يدي لجيبي، فمنحتهم ظهري وخرجت من المقبرة حاثاً الخطى ودبيب النمل يرتقي مرفقي.

كنت حزيناً حزناً غريباً، ليس على رحيله وإنما لأمر كان يجول بالبال دون أن أقف عليه بالتحديد، لم أستطع الذهاب لأي مكان

فعدت إلى البيت. كان يقف أمام أهدابي بكل التفاصيل وثمة كلمات تتراكض من شفاهه صوب أذني:

- الحياة دائرية يا صاحبي.

عندما بدأت أكتب القصة كان نزيلاً في مستشفى «شهار»، وبدأت صوري تنزل ملاصقة للقصص التي أكتبها، ذات ليلة وجدته يقف على رأسي ساخراً:

- لقد أصبحت كاتباً.

نهضت وحضنته بقوة، كانت هيئته تنفي أنه للتو قذفته بوابة الأمراض العقلية، وقف متزناً حاذقاً حلو الضحكات بملابس بسيطة مرتبة. أيقنت أن وساوسه قد خمدت، وقبل أن أمد ظني بعيداً، جلس بجواري بحضن كتفي مردداً:

- إن أبطال قصصك أحياء في زمن القراءة وكذلك نحن أحياء بصورة ما في ظرف آخر، كلنا أجزاء لا تتلاشى ونتواجد بصور شتى.

أحسست بالعطف عليه وحاولت أن أبعده عن وساوسه فتبسم بحزن:

- أنت مثلهم تظن أنني مجنون.

≈

دأبت على زيارة قبره بين الحين والآخر، فكلما قادتني ظروف الحياة إلى هذه الناحية دخلت إلى المقبرة ومررت بقبره وجلست للحظات، وفي كل مرة أخرج أكثر فزعاً مما مضى، ففي كل زيارة

أحس بالنمل الأحمر يرتقي ساعدي.

لم أكف عن زيارته إلا بعد حين، ففي إحدى المرات جئت فوجدت قبره مكشوفاً وعلمت أن القبر يهيأ لاستقبال ضيف جديد بعد أن أصبح نزيله رميماً، بعدها أصبح يزور مخيلتي في كل حين.

≈

اشتهرت في المقهى بالنزيل الذي لا يجالسه إلا الورق والحكايات، فما أن أصل إلى مكاني المحدد حتى يقبل النادل بطلباتي التي حفظها من كثرة ترديدي إياها، يضعها أمامي بصمت ويغادرني دون أن نتبادل التحيات.

اليوم لم أكن راغباً في القراءة أو الكتابة فأخذت عيناي تدوران بين وجوه نزلاء المقهى، كانت وجوهاً غارقة في بحور متعددة، وجوهاً لا تقرأ فيها سوى التعب وفي أفضل الأحوال الغياب، الغياب عن كل شيء.

فجأة لمحته في المكان نفسه الذي ألف الدخول منه وبالحركات نفسها ولكنه أكثر أناقة وتيهاً فتحت عينيّ على اتساعهما وركض فؤادي كما لم يركض من قبل، عبرني بهدوء بعد أن ألقى تحية قصيرة، تهللت مجموعة كانت تجاورني وتصارخوا به:

ـ لقد تأخرت كثيراً.

ابتسم ابتسامته المترددة فبدت ثنيته المكسورة وهو يبتسم ويتناول لي

شيشة أحدهم، وأخذ يجتر دخاناً كثيفاً ويطلقه في الهواء، تحركت باتجاهه، وسلمت عليه. كانت عيناه تركضان في وجهي باستفسار كمن لا يعرفني. همس بثقة:

ـ هل من حاجة أقضيها لك؟

أحسست بشيء يجذبني إلى الأسفل، رددت بآلية:

ـ كلنا أجزاء لا تتلاشى وإنما تتواجد بصور شتى.

فانطلقت ضحكات الموجودين، وخرجت من المقهى تاركاً شخوصي وأوراقي وثمة ضحكات مستهجنة تتبعني.

قصص نيئة

حين تنبت الصرخة

جميعهم حوله

سار بخيلاء، وبيده درع نحاسي صقيل ناعم الملمس ينتهي بحواف حلزونية مذهبة، وقاعدة من القطيف الأخضر.

زوجته تبتسم في وجهه كلما توقف وألقى ضوء عينيه على وجهها البيضاوي ذي الملامح الدقيقة المتناسقة المهزومة بتجاعيد قطنت أسفل شفتيها، وتركت ابتسامتها مسترخية كغصن في شجرة مائلة. زفه أبناؤه وهو يسير مختالاً بينهم، يتنقل بهم من غرفة إلى أخرى، كانت غرفة الاستقبال هي آخر الغرف، اختار البترينة التي تحمل التلفاز وجهاز الرسيفر، محمحماً:

- أفضل أن يكون هنا.
- ....

فرّت البنت الصغرى وهمّت بأن تلقي جملة إلا أن نظرة أمها ألجمتها فاستكانت بمكانها تتبادل النظرات المرتبكة مع إخوتها.

في داخله استحسن ذلك الصمت المهيب من قبل أبنائه،

واستكمل:
- هنا سيراه كل من يزورنا وسيعرفون من هو أبوكم.

استعجل ابنه البكر لتفريغ تلك البترينة من محتوياتها المنصوبة فوقها، ووضع الدرع هناك مستجيباً لأوامر أبيه الموجهة:
- لا تضعه في الأسفل ..يبدو أنك لست فخوراً به.

وجذب ابنه بغضب مفتعل ووضع الدرع في أعلى البترينة.

وقف أمامه متأملاً موضعه، وابتعد عنه قليلاً قليلاً، جلس في أماكن مختلفة من المجلس يتطلع إلى الدرع من زوايا متعددة ويقفز من كل جلسة ليعدل وضع الدرع ويعود إلى مكانه يختلس النظرات لموقعه الجديد ويخاطب أبناءه بصورة آلية من غير أن ينتظر جواباً محدداً:
- هه هكذا أحسن، أليس كذلك؟

ومع كل همهمة كانت رؤوسهم تهتز مستحسنة الموقع الذي اختاره للدرع، صاح مستنكراً:
- كل الأماكن هزتم لها رؤوسكم ..لا أحد يركن لآراء الهازين رقابهم على الدوام.

لم يعلّق أحد منهم على مقولته، وإن أبدت زوجته شفقة على أبنائها

الذين حاروا في ما يفعلون، وإن كان أصغرهم أقرب للتمرد على تلك اللحظة الواجمة، فسمّرت عينيها به كي لا يباغت أباه بكلمة تعكر خاطره.

أضمر غضبه، واحتضن ابنته الكبرى، مداعباً شعرها بحنان، بينما كانت عيناه تهبان كرياح وديعة على تلك الوجوه المرفرفة حوله. أحس أن أهل بيته المجتمعين، ينتظرون كلمة ما، تطلع فيهم للحظات وأعاد نظره للدرع الذي استقر على البترينة كتمثال مقدس وزفر متحسراً على أيام مضت. في البدء كان صوته متهدجاً ثم اعتلى أسماعهم بنغمة شجية، وذكريات كانت تهرب من لسانه كلما حاول الإمساك بها.. الشيء الوحيد الذي استطاع أن يلهج به بحزم تلك الجملة الطويلة التي تفرعت لحكايات ومراجعات ودروس رغب أن يستوعبها أبناؤه:

أربعون عاماً كنت خلالها مثال الموظف النشط أؤدي عملي بمثابرة. كنت أحسن الإصغاء لرؤسائي وأنفذ مقترحاتهم كساعة لا تخطئ التوقيت.. أربعون عاماً مضت كالحلم.

أحس أنه وقع في شرك الكلمات فعاد للحديث مستدركاً:
- لم أكن أهز رأسي على الدوام ولكنني كنت أنفذ ما أؤمر به حتى لو لم يكن موافقاً هواي، فالوظيفة ليست رأياً شخصياً بل نظام وقوانين ..

يبدو أنه ملّ من الكلام، أو من تراشق النظرات الجامدة المختبئة خلف أفواه رتقت بإبرة الصمت، حدق بالدرع ملياً وخاطب زوجته بنبرة وديعة:

- إنه صقيل كأيام عملي، عليك أن تمسحيه دائماً ليظل صقيلاً.

ومن غير أن تنتظر قفزت إلى مكان الدرع ومسحته بثوبها فثار فجأة:

- ثوبك مزركش سيخدش هذا اللمعان، ألا تعرفين كيف تنجزين المهام الموكلة إليك بإتقان؟

اختفت ابتسامتها، وارتدّت لداخلها، ثم انسحبت من مكانها لتعود إلى جواره من غير أن تنبس بكلمة. شعر بالضيق يعتريه، فواصل تهيجه دون أن يرد عليه أحد.

هذه المرة أحس أن الصمت الذي حوله مقبرة تناديه أن يدخلها بصمت يوازي جلالها.

≈

تراه جذلاً، إلا أن خاطراً يتغلغل بأعماقك ويشي أن فرحته يشوبها كدر.

≈

بعد يوم من استلام الدرع

لم يكن معه أحد، جلس في مواجهه الدرع، أخذ يقرأ تلك الكلمات المنقوشة بماء الذهب والمكتوبة بخط الثلث:

شهادة شكر وتقدير

بكل الفخر والاعتزاز تتقدم الوزارة بشكر الموظف محمد علي بن يوسف على أداء عمله بكل تفانٍ وإخلاص، وتتمنى له أياماً سعيدة بجوار أسرته بعد أن قضى زمناً طويلاً من العمل الدائب والمخلص بيننا. كان خلال فترة عمله محل الثقة والتقدير من قبل رؤسائه الذين عمل معهم.

المدير العام

عمر عبدالرحمن البكر

أعاد قراءة تلك الكلمات المصلوبة على الدرع عدة مرات، كان يتوقف عند كل كلمة ويتأوه بحنين، تباغته خواطره في تداعيات متلاحقة.. وأخذت تبتعد به عن تلك الكلمات.

≈

أربعون عاماً انتهت بلوحة نحاسية

من كتب هذه اللوحة؟ هل كان فرحاً وهو يخط هذه الكلمات أم تم نقلها عن ورقة ممزقة نقلها بصورة آلية من غير أن يعرف صاحبها، أو يعرف كم تكبد من أحزان وأفراح طوال سنوات العمل التي أمضاها بين أوراق وملفات الأرشيف؟

هي شهادة براءة لمن أخرجك من السباق، هي رجفة فرح غامر لقلب جلس يلعب الشطرنج لساعات طوال تجري في عروقه لحظات التوتر والتربص، واستطاع بمهارة أن يخرج قطعة أخرى من القطع البائسة والتي عليها أن تغادر مكانها من غير أن يشعر

بها المتنافسون ..أنت الآن قطعة خارج اللعبة مقذوفاً كيفما اتفق، ستبقى على الهامش، ربما تستعجل انتهاء اللعبة لكي يتم حملك مع القطع المنتصرة والمهزومة لتعود بداخل صندوق مغلق مظلم تحلم بيد تنقلك مرة أخرى، تعبث بك،تمسك بك وتجوب بك أرضية اللعبة.. وفي لحظة تقرع رأسك بنشوة الظافرين لتسقط في جوار قطع سبقتك. تنكفئ على أي جنب لا يهم ..نحن قطع تسير للأمام، فقط للأمام وفي أحيان كثيرة تكون حركتنا طمعاً للاستدراج وحين ننتهي لا يأبه بنا أحد حتى أولئك المترقبون للسقوط الكبير.

أربعون عاماً يقابلها درع نحاسي وكلمات باردة، وأمنيات كسيحة. نحن قطع على أي حال، قطع شطرنج، أو قطع جبن تركت داخل صندوق ليقرضها فأر مهمته الأساسية الإجهاز على ورمنا.

كنا مجموعة كبيرة من الدمى التي طوحوا بها خارج اللعبة، ولكي نبدو ذوي قيمة فقد تم إقامة هذا الحفل، ولم يحظَ بالتكريم سوى عدد محدود للغاية قررت الوزارة منحهم دروعاً تذكارية ومبلغاً مالياً لكفاءتهم خلال عملهم الطويل، بينما ظلت البقية الباقية مجرد أسماء وأرقام تخلصت منهم الوزارة ببلوغهم السن التقاعدية، وإن كنت قد سمعت من وكيل الوزارة حديثاً استرقته أثناء سيري خلفه في إحدى المرات التي تواجدت بها في الطابق الذي يوجد فيه مكتبه وكان تواجدي هناك لإنهاء أوراق التقاعد. سمعته يقول لمرافقه:

- لقد ارتأت الوزارة تكريم النجباء من أبنائها بينما الخاملون والتنابلة يكفيهم تحمل الوزارة لهم كل هذه

السنوات الطوال وكان الأجدر بها طي قيدهم من زمن طويل، ولو كنت وزيراً لمنعتهم من استلام الراتب التقاعدي.

هذا القول جبر خاطري، وهوّن علي تلك المشاعر الخانقة التي لازمتني منذ أن عرفت بإنهاء خدماتي، فتكريمي واصطفائي من بين تلك الأعداد الغفيرة للتكريم هما اعتراف يمنحني الرضا بقية العمر.

كانت زوجتي أكثر فرحاً مني بهذا التكريم فقد جهزتني، منذ وقت مبكر، وأحسنت قيافتي كما يليق بعريس يستقبل حياة جديدة، ورشت العطور على هامتي وثيابي، ودارت بمبخرتها وهي تطلق الزغاريد ولم تستجب لزجري:

– يا مرة ..أنا ذاهب لحفل التقاعد وليس لاستلام منصب الوزير.
– ومن يكون الوزير ..أنت أفضل من مائة وزير.

وودعتني، وعيناها تشعان بفرح بكر:
– عد سريعاً ..فالأيام القادمة أنت لي لوحدي.

هناك، في قاعة الحفل اصطففنا في المقدمة، كانت معظم الأفواه تبتسم، مؤجلة لحظة الوجوم والوداع إلى ما بعد الانتهاء من فقرات الحفل، كلنا كنا نرتدي البياض (الثوب والغترة) قلة منا التفوا بالمشالح، وقد وجدت نفسي في حالة مرتبكة بذلك المشلح الذي أخرجته زوجتي من دولابها وهي تتضاحك:

– أتذكر هذا المشلح؟.. إنه المشلح نفسه الذي لبسته في ليلة عرسنا.

تلفتَ يميناً ويساراً ..كل المتقاعدين يخفون شيئاً من المرارة، فلحظات الفرح لا يمكن لها أن تظهر هكذا..

حينما شد المدير العام على يدي كادت تطفر من عيني دمعة مالحة، دمعة بعمر ذلك الجهد الذي أمضيته داخل غرف الأرشيف،كنت أتمنى أن أقول له:

ـ أبقني، مازلت قادراً على العمل.

كنت أتمنى ذلك لولا إباء قديم نهض فجأة ليمنع سقوط تاريخ طويل من الأنفة ورثتها عن مزارع عتيد، كان منشغلاً بقدح ابتسامته والتي حاول جاهداً أن يبرزها بوضوح لكي تختلسها تلك الكاميرات المتابعة لبرنامج الحفل. شد على يدي وأطلق ابتسامته، وحين غادرته الكاميرا استعجل إزاحتي من أمامه.

كنت أول من نهض، فبمجرد أن ذكر اسمي الأول حتى قفزت مستعجلاً وكدت أن أتعثر في طريقي حينما مضغت خطواتي المرتبكة المشلح المسبل على قامتي، ومددت له يدي وثبت بالأخرى محتضناً يده بحرارة إمعاناً في التودد، وأوشكت أن أقبل يده لتلك الابتسامة الصافية التي أطلقها في وجهي، كنت أظن أنه خصني بها دون الآخرين.. وبعد أن استلمت درعي واستكنت في مكاني المخصص وجدته يوزع تلك الابتسامة على جميع من يصعد من الزملاء المتقاعدين حتى إذ ابتعدت الكاميرات تهدم وجهه وغدا بيتاً خرباً مظلماً بذلك العبوس المشع بين حاجبيه وضيقه المتبرم ممن صعد للسلام عليه.

≈

بعد يومين من تسلم الدرع

استيقظ كعادته، وجد أن الجميع منشغل بالذهاب للعمل والبعض الأخر للمدارس وزوجته نائمة.

خرج إلى الشارع وعاد بصحيفته. تمنى أن يرتشف كأساً من الشاي.. تحرك لإيقاظ زوجته لكنه أشفق عليها فتركها تتمطى في فراشها كغيمة حائرة ..دلف للمطبخ وأعد إفطاراً يابساً (عيش وجبن وزيتون وتشكيلة مخللات) وجاهد في تجهيز كأس شاي، انتهى من قراءة صحيفته وقام بأعمال عديدة ..رتب أوراقه القديمة، نظف أواني المطبخ، أصلح أفياش الكهرباء المعطوبة، رتب أسرة أبنائه، مازال الملل يغزوه من كل جانب، اطمأن على الدرع مراراً، حفظ الكلمات المكتوبة عليه، تحرك في كل الغرف ووجد نفسه يحصي عدد البلاطات التي تغطي غرف بيته الخمس ثم انتقل لإحصاء عدد السلالم التي توصله لبيته يومياً.. وكم كان الرقم مدهشاً حينما اكتشف أنه وطئ كل سلم ما يزيد على ستة ملايين مرة (وصل لهذا الرقم بمسألة حسابية بسيطة أعانته للوصول إليها آلة حاسبة كان يستخدمها لتوزيع دخله الشهري).

صدمت زوجته عندما استيقظت ووجدته يمسح أرضية الممر المؤدي للمطبخ، تلقته بضربة على صدرها:

ـ لا هنت يا أعز الناس.

وانكبت على يديه تقبلهما وتخلصهما من تلك المسحة التي اصطبغت بألوان حائلة ..كانت ابتسامته مشتتة أقرب للارتباك:

ـ لم أجد شيئاً أعمله.!!

بعد خمسة أيام من استلام الدرع

الهاتف يرن، تمتد إليه يد زوجته، تضع السماعة على أذنها وتلمع عيناها بفرح:

- محمد الوزارة تريدك.
- (أوه، الآن تذكروا فداحة تركي للعمل! كنت قد تقدمت بالتماس للبقاء على رأس العمل لسنتين قادمتين، أعيد طلبي مع اعتذار مهذب، فهل تراجعوا عن القرار المتسرع في حقي؟ لقد عرفوا قدري بلا شك).
- ماذا بك؟ لماذا تبدو جامداً؟ أقول لك الوزارة على الهاتف.

تناول السماعة، وجذبها إليه محرضاً إياها أن تلصق خدها لتسمع اعتذارات الوزارة بعد أن وضع يده على سماعة الهاتف:

- الآن ستسمعين مقدار ما تركته من فراغ .كنت جازماً أنهم سيحتاجون لي.

لكزته وهي تستحثه:

- ردّ على الرجل قبل أن يصيبه الضجر.
- ألصقي أذنك معي لتسمعي.

رفع يده من على السماعة وأصدر نحنحة مصطنعة. حاول أن يبدو صوته رصيناً قدر الإمكان:

- أهلاً، أهلاً.
- أهلاً بك، كيف الحال؟
- جيد.

- نحن نعتذر بشدة.
- لا عليك، كنت أعرف أنكم سوف تتصلون.
- حدث ليس بسيط وأنت خير من يقدّر.
- أعلم تماماً ما قد يحدث، وأنا متجاوز بطيب خاطر عن كل خطأ.
- هذا ما عودتنا عليه، وأنا مكلف أن أعتذر لك بشدة.
- يا رجل لا داعي للاعتذار.
- إذاً سنرسل أحداً لاستلامه.
- ....
- اتفقنا.
- استلام ماذا؟
- الدرع.
- ......
- أنت تستحق مثله ..لا، لا بل تستحق أفضل منه.
- ....
- لقد حدث لبس.
- لبس؟
- نعم فالدرع لمحمد بن علي يوسف زميلك بالمالية. أنت مقدر هذا الخطأ بلا شك، فالاسمان متشابهان ونحن مقدرون صفحك.
- ....
- أما بالنسبة إلى المكافأة المالية، فقد تقرر حسمها من راتبك التقاعدي.
- ....
- الآن يهمنا إرجاع الدرع، متى تحب أن يصلك مندوبنا؟
- .....

- ..فصاحب الدرع غاضب وأقام علينا الدنيا. لقد بلغت شكواه للوزير.
- ....
- ما رأيك أن يصلك مندوبنا الآن؟
- ....
- أرجوك، لابد أن نستلمه اليوم قبل أن يصل تعقيب الوزير.
- ......
- سوف أبعث مندوبنا الآن.
- ....
- لماذا لا ترد؟
- ....
- أتسمعني.

صرخة أنثوية مفجوعة نبت في فضاء الغرفة لجسد ارتمى في جوارها متخشباً.

الممر

في الممر الطويل أسندت جذعي بيدي بينما كان نظري منشغلاً بيافطة تحذر من التدخين، وثمة خاطرة تعبر مخيلتي:

- إنهم يعلقون هذه اليافطات ليمنعونا من التلذذ بإحراق صدورنا لنترك تلك المهمة لهم. أليس من الأجدر أن تقوم بإحراق صدرك بدل أن يحرقه الآخرون؟ وبآلية، أدخلت يدي في جيبي وتناولت سيجارة وأشعلتها ببطء مستنشقاً قدراً كافياً من الدخان وضغطته للداخل حتى شعرت أن أوردتي تشبعت وأن رئتي اختنقت بما فيه الكفاية فنفثت اشتعالاً أحسست به يتموج في صدري، ذلك الاشتعال الذي حاولت إخماده بسعال ممتد، ولم أشعر بالاستمتاع إلا بعد أن سربت كومة كثيفة من

الدخان صوب تلك اليافطة وأدرت لها ظهري ملقياً بصري في ذلك الممر الكئيب.

كانت ثمة ممرضات يتطلعن باتجاهي وألسنتهن تقذف كلمات حجرية لم أفقه منها شيئاً، وحزرت أن سبب نظراتهن العدائية ميلها ذلك الدخان المتصاعد من فمي المصفر. لم أعبأ بهن فقذفت ببصري بعيداً عنهن وإن كانت بي رغبة لمبادلة عيونهن الضيقة تلك النظرات العدائية، فأعرضت عنهن خشية أن ينشب بيننا شجار فلا أقدر على أخذ حقي من امرأة. ألصقت سيجارتي بفمي ومززتها مزاً قوياً محاولاً إعطاءهن ظهري، وقبل أن تكتمل استدارتي لمحت إحداهن مقبلة نحوي ولسانها لايزال يمطرني بتلك الكلمات الحجرية. اقتربت مني ففاحت منها رائحة عطر رخيص، كان فكها يعلو ويهبط بالكلمات دون أن أميز ما تقول، وعندما أشارت إلي بإطفاء السيجارة حرت وأخذت أبحث عن مكان لإطفائها وقد زاد من ارتباكي أن المتواجدين تقافزت عيونهم باتجاهنا وأخذ بعضهم ينظر إليّ بازدراء. كنت أود افتعال شجار مع رجل عبرنا وقذف بنصيحة لم أفهم منها إلا أنني قبيح المسلك،كانت تلك الممرضة لا تزال (تبرطم) وأنا لا أزال حائراً أبحث عن مكان مناسب لإطفاء سيجارتي. كان الممر لامعاً لا توجد في طفايات أو شتلات يمكن أن أضع بها هذه السيجارة اللعينة، وفكرت بقذفها في الممر وفركها بأسفل قدمي لولا أن تراجعت حين لمحت بلاط الممر اللامع والمفروش في إحدى جنباته ببساط غالي الثمن ومزين بلوحات جدارية، وبعض اللوحات الزاهية ذات التواقيع المختلفة. كانت هيئتي تدعو للضحك، فحيث كنت أسير كانت تلك الممرضة الغبية تتبعني بتعليقاتها التي لم أفهمها والتي جعلت بعض النسوة يتخلين عن رزانتهن ويضحكن بصوت مسموع، ولم أجد بداً من فركها

بين أصابعي متحملاً لسعاتها الحارقة؛ ومتذكراً تلك التحديات التي كنا نقوم بها من إطفاء السيجارة على جلودنا في بدء تعلمنا شرب الدخان. ولم تكتف تلك الممرضة بهذا الفعل ولم تتركني حتى وضعت سيجارتي المنطفئة بداخل جيبي، لترتفع ضحكات من كان يتابعنا، وتركتني بعد أن سفحت كلمات يبدو أنها درس في السلوك العام. بعد أن غادرتني استندت إلى جدار الممر حاضناً نصفي الأعلى بيدي ومقوساً إحدى رجليّ كمن يهم بتنفيذ عقاب صارم. في هذه اللحظة بزغت فتاة من آخر الممر كانت تمشي بريبة متثاقلة وتتطلع نحوي لا تحيد عني، وكلما اقتربت عمّقت عينيها بوجهي حتى إذا وازتني رفعت (بيشتها) ودققت النظر في وجهي وكأنها تبحث فيه عن شيء ما، وظلت لبرهة تحدق بي .. كانت عيناها السوداوان تنتظران شيئاً غامضاً عجز وجهي عن إمدادها به، وعندما رأتني جامداً كالجدار الذي استند إليه صكت وجهها وعبرتني كرصيف متهدم.

خطت.. فأحسست برغبة في اقتفاء أثرها، فجذبت رجلي المقوسة وأطلقت سراح نصفي الأعلى الذي كنت أحضنه ببلادة، وربما امتدت يدي صوب غترتي لإصلاحها، فالذي أذكره جيداً أنني مضغت طرف غترتي وسوكت به أسناني الصفراء بعنف حتى لم يعد ثمة ريق يساعدها على الانزلاق بين تلك الأسنان العريضة، ورفعت جذعي المائل من على ذلك الجدار وتبعت خطواتها المتثاقلة البطيئة. كنت أسير خلفها على مهل مبدياً عدم اكتراثي بها ومتطلعاً للافتات العيادات المتناثرة على امتداد ذلك الممر. أحسست بوقع أقدامي خلفها، فتباطأتُ، فتسمرت في مكاني، كنت خائفاً وحائراً، فعبرني سؤال حاد لم أجد إجابة عليه:

ــ لماذا الخوف حينما نسير خلف رغباتنا؟!

كان سؤالاً ساذجاً سقط عند التقاء عينينا حيث شبت ابتسامتها العذبة، وانزوت جانباً تعبث بحقيبتها اليدوية وتتطلع صوبي بحذر. تراخت شجاعتي حينما خطر ببالي أن شخصاً ما يتبعنا، فأسندت جذعي بجوار عيادة «الباطنية» وشعرت بحرقة من تلك العيون التي وجدتني أمامها لتنشغل بوجودي للحظات كاسرة ملالة الانتظار، حين تحتني وقد توقفت أغلقت حقيبتها بحنق وواصلت عبور الممر، فتجاسرت وتبعتها، شعرت بالغيرة تلدغني حينما رأيتها تعمق النظر صوب شاب كان يذرع الممر ذهاباً وإياباً محتضناً نصفه الأعلى بيديه، فتباطأت خطواتها، ورفعت صوتها متسائلة:

- ألا يوجد هنا هاتف؟!

وعندما رآته مقبلاً نحوها، أسفرت عن وجهها، فلمحت الشاب يرفع عقاله ويعيد إصلاحه، فسمعتها تهمس له:

- كدت أن أقع مع حمار كان يحضن نصفه الأعلى بيديه.

فرد الشاب وابتسامته تتألق:

- ألم نتفق على إشارة العقال.
- كنت أنتظره أن يفعلها لكنه ظل يحملق في وجهي كثور أبله.

ثم جذبها من يدها صوب المصعد:

- تعالي إلى هنا قليلاً.
- لا..لا أستطيع أن أتأخر فأبي ينتظرني بالخارج، يكفي أنني رأيتك، ودع الجلوس لوقت آخر.

وألقت بين يديه مظروفاً له لون المراهقة، وعادت تتهادى كسحابة يانعة. اصطدمت عينانا للمرة الثانية، فأسرعت أحفز نفسي المترددة:
ـ سنحت لك الفرصة فلا تفوّتها.

عمقت بصري بوجهها، وحدثتها بلباقة ـ كما كنت أتصور ـ:
ـ سيدتي، يوجد هنا هاتف.

انحرفت عن مواجهتي ورفعت صوتاً غليظاً:
ـ (انطمّ)

وواصلت تهاديها بدلال، جارة رائحة عطرها الفاخر خلفها، وقبل أن التفت لمواصلة تتبعها جرفتني قهقهة عالية كانت لشاب يحمل مظروفاً له لون المراهقة، فأحسست بتضاؤل أمام ضحكته المرتفعة وأناقته المهيبة، فأسندت جذعي إلى جدار الممر وأخرجت سيجارة وأشعلتها جاراً نفساً عميقاً لأسكت سعالي الذي نما فجأة، وحين لمحت تلك الممرضة مقبلة باتجاهي وهي تمطر بكلماتها الحجرية، أخذت أركض صوب بوابة الخروج.

رجب ١٤٠٨

الحل الوحيـد

لم يكن يدور بخلدي كيف يمكن أن أشرح له بما أحس حيث كان يقف على جسدي الهزيل بقامته الفارعة، وقد أسقط بحلقي ملعقة خشبية وبين الحين والآخر يأمرني بأن أخرج صوتاً أشبه بالاستفراغ، قول: آوقد سمعها مني مراراً، ففي كل زيارة أذهب إليه يجعلني أضطجع على ظهري بعد أن تكون ممرضته قد أخذت قياساً لحرارتي، وضغطي، ووزني، ولا يعود متبقياً عليه سوى تمرير سماعته على صدري، وغرس تلك الملعقة الخشبية أسفل قاع فمي. وكان يحدث هذا مع كل طبيب أصله، وأخرج وأنا لا أزال أعاني من مرضي الغريب حتى أن كثيراً من الأطباء دفعوني لزيارة إخصائيين نفسيين، وهؤلاء بدورهم أحالوني على أطباء عضويين، وكان آخر مطافي عند هذا الدكتور الذي راق لي، ففي أول زيارة أجلسني أمامه، وأمطرني بالأسئلة بينما كان يدون كل ما أقول في (نوتة) صغيرة، قلت له:

- أشعر بمرارة تلازمني أينما اتجهت. وبعد فحوصات، وتحاليل، وأشعة مقطعية، وطولية، وملونة، لاطفني بود:
- أنت لا تشكو من شيء ..أفلا تستطيع أن تتعود على هذه المرارة؟

رددت عليه بعجز:
- لا أستطيع أبداً يا دكتور فهي تتصبب في داخلي بغزارة، وتحيل حياتي إلى كابوس.

حاول التخفيف علي:
- لا عليك، فكلما شعرت بها تناول قطعة سكر وأذبها بحلقك.
- لقد بلعت من السكريات أكياساً تجعلني بحراً سكرياً، ومع كل هذا فالمرارة التي أحس بها تزداد، وتتدفق في حلقي بغزارة بل على العكس، فكلما أدنيت من فمي شيئاً من تلك السكريات سالت المرارة في كل أجزاء جسدي حتى أشعر أن شعر بشرتي يستنشق هواءً مراً.

وخرجت من عنده بعد أن أوصاني بملاحظة حالتي ومتى تقلّ المرارة.. ومع تكراري المجيء إليه، بدأ يشعر بالسأم والضيق من حالتي التي أعيته، كنت أحس بذلك دون أن أجرؤ على مصارحته بما يختمر بداخلي، وها أنا أضطجع على ظهري، ولا أعرف كيف أشرح له بما أحس بعد أن استنفدت كل الطرق الممكنة لشرح حالتي ..أنهضني من رقدتي تلك، وتبسم في وجهي:

- كيف هي المرارة (معك) الآن؟
- أشعر بأن فمي بحر من مرارة تفيض كنهر لا ينضب.
- ألم تلاحظ متى تخفّ؟

عصرت ذاكرتي، فاستعصت تلك اللحظات على المجيء، وبعد جهد وتركيز تذكرت بأنها تتلاشى بمجرد أن أذكر الموت، فصحت به:

- نعم، أشعر بطعمها يزول من فمي كلما تذكرت الموت، أو فكرت فيه!

ففز من مقعده صائحاً بفرح:

- هو الحل الوحيد..نعم هو الحل الوحيد!!

غيــاب

وصله إخطار من المدرسة بتغيب ابنه لأسبوعين متتاليين، فأصابته الدهشة، وتوجه إلى إدارة المدرسة مستنكراً، ومد بالخطاب إلى المدير متسائلاً:

- كيف هذا؟
- كما ترى.. فابنك متغيب عن المدرسة منذ أسبوعين.

احتدّ الأب صارخاً:

- ولكنه يخرج يومياً حاملاً شنطته، ويتجه إلى المدرسة بسعادة بالغة، ويتكدر كثيراً من يومي الإجازة.
- قد يكون هذا صحيحاً لكنه لا يأتي إلى المدرسة.

أخذ المدير يحدق بالأب المذهول، ولشعوره بأنه غير مصدق أردف:

- إذا أردت أن تتأكد من صدق قولي فاذهب وانظر في جميع فصول الصف السادس ولن تجده.

عاد الأب إلى البيت حائراً في ما يصنع، وبعد تفكير عميق قرر أن لا يفاتح ابنه بما علم، وأن لا يشعره بشيء البتة.

وفي صباح اليوم التالي استيقظ فوجد ابنه متأنقاً، ومتجهزاً للخروج، فتركه يمضي واقتفى أثره.

كان الطفل يسير في ممرات ملتوية ويعدل بين لحظة وأخرى إلى إصلاح هندامه، وفي بعض الأحيان يخرج مشطاً من حقيبته ويسرح خصلات شعره القصير، حتى إذا بلغ المنعطف الذي يؤدي إلى مدرسته تجاوزه وانحنى يميناً ليتسور جداراً قصيراً ويمد يده لاقتطاف وردة حمراء تدلت من غصن شجرة أحد البيوت الفخمة، وسقط على الأرض بتوازن إنسان تدرب على هذه الحركة حتى أتقنها، وأخذ يصلح هيئته نافضاً التراب الذي علق بثوبه ومعيداً تسريح شعره للخلف، وعندما رضي بهيئته حمل حقيبته وتباعدت خطواته حتى إذا بلغ إحدى البوابات توقف بجوارها، وأسند حقيبته إلى جدار تلك البوابة بعد أن أخرج منها منديلاً أخذ يمسح به وجهه ورقبته باهتمام، ووضع الوردة بيده اليمنى منتظراً في مواجهة تلك البوابة. مضت لحظات قصار، وصرّ الباب صريراً ثقيلاً لتبزغ منه فتاة ترتدي (مريولاً) يشي بأن صاحبته طالبة بالمرحلة الثانوية. وعندما أغلقت تلك الفتاة الباب تقدم منها الصبي، وناولها تلك الوردة، وحمل لها حقيبتها، وانطلق يسير أمامها، وعيناه تحدقان بشزر إلى كل عين تحاول اختراق (بيشة) تلك الفتاة، وفمه يطلق سيلاً من الشتائم لكل من يحاول أن يقذف كلمة في طريقها،

حتى إذا بلغت باب مدرستها ناولها حقيبتها، وتبعها بعين متلهفة حتى غيبتها بوابة المدرسة عنه، فقذف بشنطته جانباً، وجلس بجوار (حجة) كانت تبيع لوزاً سودانياً وهندياً، وفصفصاً، و(حبحبوه)، وعيناه لا تملان من التحديق بتلك البوابة العريضة المغلقة، وكلما تباطأ الوقت زادت حركته توتراً، وكثرت التفاتاته، وقد أمضى وقته باللعب منفرداً بألعاب شتى، ثم انتقل إلى شجرة سدر وأخذ يقذف حبيباتها الناضجة بالحجارة دون أن ينكفئ لجمع ما تساقط، حتى إذا مل انطلق الى أحد الدكاكين وعاد يحمل مشروباً بارداً لم يكمل شربه، وتبرع بالجلوس بدلاً من تلك (الحجة) العجوز لتغيب زمناً من الوقت وتعود ليترك لها بضاعتها وبعض النقود البسيطة التي باع بها خلال غيبتها، وينطلق راكضاً في دوران محموم حول سور المدرسة حتى إذا تجاوز النهار انتصافه، وارتفع جرس المدرسة معلناً انتهاء اليوم الدراسي تناول شنطته وتسمر أمام تلك البوابة يحدق بالفتيات الخارجات، وإذا أطلت تلك الفتاة من بوابة المدرسة ركض باتجاهها وحمل لها حقيبتها، وأقفلا عائدين، وقد أطلق لسانه بالشتائم لكل من يحاول أن يقذف كلمة في طريقها!!

غـزل

سيارة فارهة، ووجهان صقيلان تفور منهما الصحة والشباب، وغتر منشّاة، وروائح ناعمة تغادر سيارتهما صوب الشوارع التي قطعاها في مطاردة الغمائم السوداء.

وكانت ثمة فتاة تسير وحيدة، وكلما خطت فزّت نحوها العيون، والأعناق، فلها مشية حمامة، وقد تتلوى، وتتمايل كغصن رطيب، تدك بمشيتها القلوب، وتمضي غير آبهة بما أحدثت من تأوهات وغير مكترثة بكلمات الغزل التي كانت ترشقها بلوعة.

سارا بجوارها، وخفضا سرعة سيارتهما حتى غدت تتدحرج.. أحدهما أخرج رأسه من النافذة، وأطلق لسانه بجرأة:
ـ لم أحسب أن القمر غادر السماء!

جمحت بدلال، وخطت برشاقة، وهي تداري ابتسامة كادت تتموج، وتستحيل إلى ضحكة، وانعطفت إلى شارع أكثر انزواء.. تبعاها:

ـ (تفضلي..نوصلك إلى آخر الدنيا إن أردتِ).

التفت نحوهما، كانت عيناها ـ من خلف (الشيلة) ـ تغريان بالسير خلفها حتى بلوغ حدود التعب.

ضرب السائق مقود السيارة بعنف:

ـ (يوه اقبريني بين هذه الأهداب).

تنبه الشابان لوجود مجموعة من أهل الحي يتباسطون أمام إحدى البقالات، فأسرعا بتجاوزها، وانتظراها غير بعيد حين سبقتها رائحتها ..أحدهما كان يترقب قدومها من خلال المرآة، وهي تتهادى كموجة كسولة، عبرتهما ببطء.. همس:

ـ لو تعلمين بأنك تسيرين على دمي وت.....

ولم يستطع إكمال جملته فقد غدت أبعد من الهمس، فدحرجا السيارة في أثرها، وقذف أحدهما بورقة صغيرة باتجاهها، انحنت، والتقطتها بخفة، وواصلت سيرها.

قال أحدهما بنشوة منتصرة:

ـ (لقد غمزت الصنارة).

مسح السائق لذة تقافزت من عينيه، وترك فمه يطلق ابتسامة ناضجة، وردد بخبث:

ـ (اسحب الجلب بهدوء).

سبقاها، وترجل أحدهما فاتحاً لها باب السيارة:
ـ لا بد من إيصالك!

رفعت الفتاة صوتها ـ تخالطه ضحكة مكتومة:
ـ (طيب يا محمد..سأخبر أمي)!

تهاوى فجاءة، وكتم دهشته بوضع يده على رأسه بذهول، وركب السيارة حانقاً زميله على الانطلاق، وهو يغمغم بحنق:
ـ مصيبة.. إنها أختي!!

وانطلقت السيارة، تقرض الرمل وحبيبات الحصى تتقاذف بعنف، وصمت رهيب يسيل بينهما.

إمــلاء

في أول يوم دخلت فيه إلى المدرسة صدمني وجهه.

كان يحتكم على وجه صحراوي عابس القسمات، عصيّ البسمة، شحيح الطيبة. له شارب كث، وعينان مزروعتان بكتاب الإملاء. وصوته الحلزوني ذو الصرير الحاد ينخر رأسي بقسوة. يتبختر في الفصل، وعصاه تهتز فتعكر قلوبنا الصغيرة. يدور بين طاولاتنا، ويملي علينا ونحن نكتب، ونكتب، ومع كل قطعة إملاء كانت ثمة عصا تتكسر، ودموع تتناثر، وخوف يسيل من الأفئدة.. يكفي أن تخطئ خطأ طفيفاً حتى يثور، ويعدل خطأك بعصاه الريانة التي ما أن تلامس جلدك حتى تبلله بالدم.

وقف في مقدمة الفصل وأطلق صوته:

ـ كان شهماً فارساً...

وعندما مد بصره فى كراستي صعق.. ورفع صوته غاضباً:
ـ اسمعوا ما كتب هذا الحمار: (كان سفيهاً ماجناً...).. أهذا ما تفوهت به؟

فجاءت تلك الأصوات تموء:
ـ لا يا أستاذ.

فشدني من شعري، وأوقفني بجوار السبورة آمراً إياي برفع يدي وقدمي اليمنى.

في البدء أضفت حرفاً، وتعبت من الوقوف، ومع الأيام أضفت جملاً ولم أتعب ..كنت قبل أن يمرر بصره على كراريسنا أخرج وأقف بجوار السبورة رافعاً يدي وقدمي اليمني.. ثم تبعني الآخرون حتى وقف الفصل كاملاً ..تقطر وجهه بالبشر، وتطلع إلى وجوهنا بمكر:
ـ جميل أن تؤدبوا أنفسكم ..

ساعتها شعرت بأنني فى حاجة لأن أريح قدمي، فأسقطتها بعنف على صوته. حينها ارتفعت عصاه على هامتي ليتقطر دمي على حذائي الأبيض.

المضطجع

كنت أضطجع على سريري وأئن بتذمر مبتذل، وقد بلغت حداً من القنوط يجعل الحياة تتسرب من عروقي كما يتسرب الماء من شفاه طفل، ولم أكن لأصل لهذه الدرجة من التهافت لولا أنني قد لمحت اليأس بادياً على محيا طبيبي المعالج، ذلك اليأس الذي حاول تخبئته خلف ابتسامته الرقيقة، فينزو من بين أهدابه كجريان ينبوع صغير يصب في داخلي ويجرف كل طمأنينتي. (طبطبته) الخفيفة على كتفي، وكلماته الشحيحة التي كان يذرفها على مسامعي كلما وقف لمعاينتي كانت تؤكد بلوغ المصب إلى نهايته:

ـ لم يعد أمامك إلا أيام قليلة، وتغادرنا.

كنت أفهم هذه الجملة تماماً فهي مواساة مبطنة، أو تعزية مبكرة وإن كانت تحمل أملاً خائراً في إمكانية أن أعود لحياتي الطبيعية، فقد

كنت أعلم أنها أيام قليلة وألتحف بالتراب، والصمت، وأنسى هذا العذاب المرير الذي أحياه منذ أمد بعيد. لذلك غدت الحياة في ناظري أصغر من همسة طوّحت بها الريح، فلم أعد أكترث لشيء، وقد أطلقت كل شيء: لحيتي، أظافري، شتائمي، رائحتي المقززة، وتذمري الذي لا ينضب إلخ. وزاد المكان من تهيجي، حيث يذكرني بصمت القبور الخالد، فلم يكن يشاركني هذا العنبر الواسع سوى عجوز أكل الشلل نصفه الأسفل، وأخذ السرطان يقضم نصفه الأعلى بتؤدة بينما هو لا يزال يعتني بنفسه وكأنه مقدم على حفلة عرس، فقد كان يدعو الممرضة لتشذب له ذقنه وشاربه، أو أن تقلم أظافره، وعندما يستكمل زينته، يدعوها لأن تصب عليه عطر الليمون، وكان لا يتحرج من غمز إحدى الممرضات أو ممازحتهن ودعوتهن لأن يقترنّ به، وأقسم أنه يستطيع مناكحة أربع نساء في وقت واحد. وأمام تبجحه السافر لم تكن الممرضات يبدين تذمراً من تسيب لسانه، حتى أن إحدى الممرضات أصبحت تناديه بعريس المستقبل فيسعد لذلك ويهش في وجهها كلما أقبلت أو أدبرت، ويعلق على مسامعها كلمات الغزل المبتذل الذي تستحي أن تسمعه من مراهق.

وكان يستقبل الأطباء والزوار بتكتيت لا ينتهي، ويسرد على مسامعهم أماني سمجة لا يرق إليها طموح من تركض بأوردته الحياة الجامحة، وكان يسألهم دائماً عمّا يجرى في الخارج، ويطالبهم بتزويده بصور الناس، والشوارع، والحدائق. كان يضايقني بطلباته الغريبة، فقد دأب على رؤية الشروق والغروب كل يوم، ويثور ويزمجر إذا تلكأت إحدى الممرضات عن أداء هذا الدور، لذلك كانت معظم الممرضات يأتينه في مثل هذه الأوقات ويقدنه بعربة إلى حيث تشرق وتغرب الشمس. وقد يزداد دلاله ويطلب

رؤية اكتمال البدر حيث يجلس في مواجهة نافذته المشرعة على الفضاء ينظم قصائد للقمر والحياة، وعندما يعود يضايقني بإنشاده الركيك فكنت أستمع إليه بملل، وقد يبلغ الضيق مني مبلغاً أتمنى فيه أن أقذفه بما يجاورني، فأتراجع حينما ألمحه مقذوفاً في سريره كعود متيبس ليس به من حركة إلا أثر الريح العابرة لثيابه، مع هذا لم أتراجع عن الصراخ بحدة في وجهه مطالباً إياه أن يكف عن مضايقتي ..ففي ذات يوم صرخت فيه بحنق بغيض:

ـ ألا تستحي؟ لم يعد بينك وبين القبر سوى شبر، وأنت لا تزال معلقاً بهذه الحياة، وكأنك بيت هرم يكابر دقات معول قاس.

كان وجهه خالياً من أي تعبير فزاد من غيظي ..أكملت بروح تبحث عن إيذائه:

ـ أرى أن الخير وكل الخير لك أن ترقد بسلام كي لا تتعب الموت وهو ينزع هذه النفس التواقة للحياة، والمتشبثة بها كقرادة حقيرة.

وعلى غير ما أتوقع انفرجت أساريره وضحك بعمق، وعقّب:

ـ لا يزال ثمة عرق ينبض فلم لا أستمتع بهذا الجمال؟

صحت حتى أحسست بألم يتمدد في حنجرتي:

ـ أي جمال وأنت على ما أرى؟

ـ وماذا ترى؟

أغاظني بروده.. وقبل أن أواصل صراخي استوى قاعداً نصفه الحي بابتهاج، ومردداً:

ـ انظر، لا أزال أتنفس، وأرى، وأشم، وأسمع.. نعم ما زلت أتمتع بالحياة.

وعندما بلغ بي الغضب مداه، طلبت منه أن يهجرني، وأن يقطع حديثه معي بتاتاً، وأن يتركني أتمتع بانتظار الموت كما أشتهي!!

بعدها لم يعد يحدثني، وانشغل بغرسته التي كانت تجاوره، والتي أصر على أن يكون لها حوض. وما أن نهضت بساقها قليلاً حتى تمادى إصراره على أن تغرس جذورها في الأرض بدل أن تظل في (أصيص) زجاجي يعجل بوفاتها قبل أن تثمر. وأمام هذا الطلب الذي أحال المستشفى إلى ضجة يومية لا تنتهي استجاب مدير المستشفى لطلبه، فقشعت عدة بلاطات من العنبر وغرست مكانها جذور تلك النبتة، فظل يتعهدها برعايته في كل لحظاته، فألمحه يدلي نصفه الحي، ويسكب عليها الماء، ويزيل ما يتجمع حولها من حشرات ـ على حد زعمه ـ، وقد افتعل خصاماً مع إحدى العاملات واتهمها بأنها تعمل على إماتة نبتته وأمعن في اتهامه حين وصفها بالمتخاذلة وافتقارها للأمانة والشعور بالمسؤولية وهددها بأن يشكوها لمدير المستشفى إن لم تقم بتنظيف العنبر يومياً وتجنب نبتته مخاطر الحشرات، وقد استجابت تلك المسكينة لأوامره فكانت تحضر يومياً لتنظيف العنبر وجلب الماء الكافي لري تلك النبتة التي نهضت وأخذت في النمو للأعلى. ويبدو أن سبب استجابتها لأوامر هذا المستبد هو ما كان يحدثه من شغب ينتهي بموافقة مدير المستشفى لطلباته، فقبل أسابيع طالب إحدى الممرضات بأن تنزل سريره إلى مستوى الأرض حتى يكون قريباً من جذور نبتته، فزجرته الممرضة بعنف مما جعله يحدث شغباً وصراخاً انتهى بأن أمر

مدير المستشفى بأن يساوى سريره بالأرض، وأن يُحسم من راتب تلك الممرضة التي استهانت بهذا الخرف.

كانت الأيام تمضي رتيبة مملة تفوح منها روائح الأدوية والعطر الرخيص العالق بثياب الممرضات، وكان للصمت حضور نافذ، فهو القابع الوحيد في ممرات هذا المستشفى الكبير يمهر دماءنا في كل حين ولا يتركنا طرفة عين، وإن أقلقناه بأنيننا استدعى إحدى الممرضات لوخزنا بإحدى إبرها المنومة لنذهب في نوم طويل، لنستيقظ أكثر احتراماً لهذا الصمت المهيب، وأن نمد أنيننا لأعماقنا بسرية تامة.

كان جاري يشغل نفسه بأي شيء ممكن بالرسم، والشعر، وتعلم فن الطهي حتى أنه أخذ يتعلم الغزل والتطريز، وعندما برع فيها كان يغزل الشالات والمناديل ويقدمها كهدايا للأطباء، والممرضات، فكسب حظوة إضافية عند معظم العاملين بالمستشفى مما جعله يتقدم بطلب للإدارة بأن تقيم له معرضاً يعرض من خلاله كل أعماله المتنوعة.

كنت أشعر أن وجوده معي استحال إلى عذاب إضافي، فهو لا يهدأ ليلاً أو نهاراً ويصر أن تبقى الإضاءة بالليل لكي يتمكن من إنجاز أعماله المتنوعة، وحيال هذا الإزعاج المتكرر طلبت إما نقلي أو نقله من هذا المكان، فعاد طلبي مشفوعاً باعتذار رقيق، مبيناً بأن المكان الذي نشغله هو المكان المخصص للأمراض المستعصية! لذلك انشغلت عن جاري باجترار وساوسي التي لا تنتهي فكنت مع كل لحظة شهيق أوقن أنها ستكون الأخيرة، فأحبسها بداخلي خوفاً من أن ألفظ حياتي عبر الزفير البطيء، وكلما أمعنت في ترقب الموت

ازداد يأسي وكرهي لتلك اللحظة التي تتباطأ في مجيئها، وما أن تأتي ساعة النوم حتى أجفل خوفاً من أن تسرق أنفاسي في غفلة مني، ولم تعد تقف في ذاكرتي سوى لحظة الموت الغامضة المرعبة، فذويت وأصبح صدري يموج بالخوف الذي لا يهدأ، وعبثاً ذهبت أمصال تلك الإبر في نفض الذبول والضمور اللذين اجتاحا جسدي.

ذات صباح أفقت على صياح ذلك العجوز، فوجدته قد استوى، وبيده ثمرة غريبة، وعندما رآني أحدق به زاد صراخه، فنهضت من سريري - لأول مرة أنهض منذ أن قدمت إلى المستشفى - وصدري يغلي غضباً منه، وتوجهت نحوه وأنا عازم على ضربه مهما كانت النتائج، وقبل أن أصل إليه كنت أسمعه يصيح بي:

- انظر لقد أثمرت شجرتي.

شددت يدي، وهممت بإلقائها على صدغه لكنني تراجعت حينما رأيته يمد لي بتلك الثمرة، وهو يتحدث ببشر:

- يسعدني أن أقدم لك أول ثمرة أجنيها من شجرتي.

أحسست بالخجل إزاء ابتسامته الواسعة وتودده، فتناولت تلك الثمرة وعدت إلى سريري والغيظ لايزال يأكل صدري.. كنت أود لو أحطم رأسه وأرتاح من هذره الذي لا ينقطع، كان يتربص بي من مكانه، وعندما رآني أضع ثمرته جانباً دون أن أمسسها حدثني عاتباً:

- أود أن تفرحني وتتناولها كأول وجبة صباحية.

كانت عيناه أكثر إلحاحاً من كلماته، فاستجبت لطلبه على مضض،

وأدنيتها من فمي وقضمتها، وعندما أخذت ألوكها شعرت بطعم لذيذ كالحياة، فواصلت قضمها وأنا أرنو إليه بخجل.

جفت الدنيا

جلس على كرسيه وأخرج رسالة أخذ يتلوها للمرة العاشرة،وفي كل مرة يجفف دموعه وينهض لتلبية نداء جرس الدكتور ..في أخر مرة سمعت الدكتور يصيح به بانفعال:

– لم تعد صالحاً لشيء والرأي عندي أن يعفوك من الخدمة.

وعندما عاد كانت عيناه حمروابن، وشيء ما يفور بصدره حتى يخيل إليك أنه سيستحيل إلى تنور،جلس على كرسيه المجاور لمقعدي وأخرج تلك الرسالة، وأخذت عيناه الدامعتان تركضان بين سطورها، فاقتربت منه وقرأت:

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الوالد العزيز محمدين أبو ركبة المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نبعث رسالتنا هذه متمنين من العلي القدير أن تصلك وأنت تنعم بالصحة والعافية وإن سألت عنا فنحن في خير وعافية لا ينقصنا سوى عدم رؤية وجهك الغالي..نخبرك بأن الابن جلال أصيب بالبلهارسيا ولم نتمكن من علاجه في البندر حيث طلب الدكتور أموالاً كثيرة، وقد بعنا البقرة لكي نصرف من ثمنها على بقائنا في البندر. نريد منك ـ أيها الأب الغالي ـ أن تبعث لنا قيمة العلاج في أسرع وقت خصوصاً ونحن نسمع من التلفزيون أنها تقتل مثل ما قتلت عبدالحليم حافظ ـ وفي ختام رسالتنا نبلغك تحيات الجميع

المرسلة:

زوجتك التي طال انتظارها

أم جلال

ملاحظة.. أبي الغالي:

قرأت لأمي رسالتك الماضية ولم أفهم معنى قولك: جفت الدنيا ولم تعد كما كانت.

أبي العزيز: لا تنسَ أن ترسل لي ما وعدتني به، فقد خجلت من زميلاتي اللاتي أصبحن يتهكمن عليّ كلما قلت: إن أبي سوف يرسل لي أساور من الذهب الخالص.

ابنتك المحبة

زينب بنت محمدين أبو ركبة

حرر في ٦ - ٤ - ١٤٠٨

تنبه لوجودي ومشاركتي إياه قراءة الرسالة، فاحتد، وصاح بغضب:

ـ ما تقوم به يسمى قلة أدب.

فشعرت بالخجل والحزن وركضت صوب الشارع لأمزق خجلي بعيداً عنه.

تحقيق

حدق بي ملياً وحاول أن يبدو لطيفاً، أجلسني بجواره، وناولني ورقة من رزمة الأوراق المحشورة في مقلمته، وبتودد همس:

- اكتب
- ماذا أكتب؟
- اكتب حالتك النفسية.

تناولت الورقة، وخططت خطاً عريضاً:

قرفان

اندلقت من شفتيه ابتسامة مرتوية، ورفع غترته بيده اليمني:
ـ كلنا ذلك الشخص، اكتب كلمة أخرى.

وناولني ورقة جديدة، فأمسكتها وتمهلت، فتدخل:
ـ اكتب ولا تحاول البحث عن كلمة معينة، اكتب ما يخطر ببالك مباشرة ..اكتب.

فكتبت على الفور:

نكتة
ـ جميل: اكتبها الآن.
ـ أقصد أن الحياة نكتة.

أبدى تذمره: لا أريد أن تبعدنا عما جئت من أجله.

لم آت برغبتي حتى تقول (عما جئت من أجله)، وما هو ذاك الذي جئت من أجله؟
ـ أنت تجيب فقط.

ناولني ورقة أخرى: قلت نكتة، أكتب أقرب نكتة تخطر ببالك.

لماذا لا ألقيها على مسامعك وكفى.

رد بحزم: قلت اكتب.

أمسكت بالقلم وكتبت:

في أحد العروض العسكرية اصطف كبار الضباط للسلام على رئيس الجمهورية وبينما هو يتفحصهم كان بمعيته قائد كبير يقدم له

كبار الضباط المستقبلين له بينما كان الرئيس مركزاً نظراته على رتب الضباط ليصافح كل واحد وفق رتبته، فكان القائد الذي بمعيته يقول له: قائد مشاة، قائد مظلات، قائد كتيبة، قائد طيران.

فجأة لمح الرئيس قائداً (أحول) معلقاً عدداً كبيراً من النياشين وكانت نياشينه تفوق جميع زملائه فاستفسر الرئيس بتعجب عن صاحب هذه النياشين:

- قائد أحول وكل هذه النياشين على إيه؟

فأجابه القائد المصاحب له على الفور: إنه قائد التصويبات العشوائية سيدي!

ااا هـ هـ هـ

لم يجد استجابة لقهقهاتي فنضبت فجأة بينما حدق في ملامحي بعمق:

- من يمتلك هذه الروح يجب أن يكون سعيداً؟
- ....
- إذاً ما الذي يضايقك؟
- الوجود.
- لا نريد فلسفة.

هذه ليست فلسفة، لو فكر أحدنا قليلاً لما احتجنا لكل هذا الكم من الدسائس.

- أي دسائس تقصد؟
- ألا ترى أننا نأكل بعضنا؟
- حدد.

- أنت مثلاً تضيّق الخناق عليّ من أجل أن تثبت شيئاً ما لا أعرفه، وفي كل مكان ثمة شخص يحفر لأخيه، بينما الحياة أقصر من أن نقضيها في الدفن المتبادل.
- لقد انحرفت كثيراً عما نحن فيه.
- ....
- اكتب كلمة أخرى.

دفع بورقة جديدة وهو يوصي: كما اتفقنا، اكتب من غير أن تفكر. كانت الورقة بيضاء وصقيلة، أمسكتها برفق وكتبت:

طز

اندهش ورفع حاجبيه وترك ملامحه تتعكر كما يحلو له وقفز:
- طز لمن؟
- للحياة برمتها، فليس هناك جدوى من أي شيء، لذلك طز لكل شيء.
- كل شيء ..كل شيء؟
- نعم كل شيء كل شيء.
- حسناً.

وانكب على كتابة تقريره، وعندما انتهى أدخله في ظرف ناصع البياض، وناوله للعسكري الذي كان يرافقني، وأوصاه أن ينتبه لي في الطريق. وبهمة مبالغ فيها أعاد العسكري إليّ قيودي، وعبرنا ممراً طويلاً قبل أن تلفحنا أشعة الشمس الحارقة.

وأمام الضابط وقفت حائراً وتجرأت وسألته:
- ما الذي عملته حتى أقاد كالمجرمين؟

نظر إليّ باستخفاف وأردف: ستعرف بعد قليل.

وفي لحظات وجدت نفسي أركب في سيارة لتنطلق بي بسرعة قصوى، مضت عشر دقائق وهي تنهب الأرض نهباً، نصف ساعة، ساعة، وبدأ الدوار يتملكني وظللت لنصف ساعة أخرى أغالب التقيؤ بكل الوسائل، وعندما توقفت السيارة، وجدت نفسي أدلف من بوابة كبيرة كتب عليها بخط عريض:

مصحة الحالات النفسية بالطائف.

صدر له:

حوار على بوابة الأرض مجموعة قصصية صادرة عن نادي جازان الأدبي ١٩٨٤

لا أحد مجموعة قصصية صادرة عن مركز الحضارة العربية بالقاهرة ١٩٨٦

ليس هناك ما يبهج مجموعة قصصية صادرة عن مركز الحضارة العربية بالقاهرة ١٩٨٨

حكايات المداد مجموعة قصص للأطفال صدرت عن نادي جدة الأدبي ١٩٩٤

الموت يمر من هنا رواية صدرت عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٩٥

مدن تأكل العشب رواية صدرت عن دار الساقي بلندن ١٩٩٨

من يغني في هذا الليل مجموعة قصصية صدرت عن دار الراوي بالدمام ١٩٩٩

الأيام لا تخبىء أحداً رواية صدرت عن دار الجمل ٢٠٠١.

ذلك البعيد، رواية (تحت الطبع)



مع الساعة الواحدة والنصف تكون قد أنهت دوامها المدرسي، يصدف مثل ما في يده ويظل منتظراً عودتها. تقف السيارة أمام المعسلة تماماً في هذه اللحظة (بالذات) تكون عيناه مستحثتين على اتساعهما فحين تدفع الباب تظهر ساقاها نافرتين من تلك الغلالة السوداء فتبين قدمان ممتلئتان مستديرتان تنتهيان بحذاء يتغير كل يومين أو ثلاثة، ثم يستقيم عودها طاعناً الفضاء بقامة فارعة رطبة، تلملم عباءتها على صدرها مخفية ثمرتين ناهدتين في استوائهما. تعبر الرصيف، تاركة جسدها يراقص الهواء والأمكنة بينما تتوقف رائحتها لتحرس مشيتها ولتثبت الأمكنة في مواضعها كي لا تتساقط حجارتها كمداً على احتذائها. في كل هذا الارتباك تزهر بمقدمها بيت واحد إذ تدس فتنتها في بوابته الواسعة فيبتسمها ويعبس للدنيا بإغلاق دفتيه.

«من الكتاب»



